أدب الاعتراف

عند زكي مبارك

د. عادل هنداوي

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

مصطفى عماد

الطبعة: الأولى

الكتاب: أدب الاعتراف (عند زكي مبارك)

المؤلف: د. عادل هنداوي

تصنيف الكتاب: دراسة

التصميم والإخراج: م/ محمد سالم

المقاس: ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع: ٠٠٠٠٠ / ٢٠١٩

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 000 - 0 - 0

العنوان : ٣ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : Yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى كُلِّ مَنْ يُقدِّم نفْعًا للبشَريَّةِ
قَبْلَ أنْ يَرْحَلَ عَن الحَياة ..

المقدمة

منذ أن خلق الله الإنسان وأنزل آدم (عليه السلام) إلى الأرض، وهو في محاولة دائبة للوصول إلى حقيقة نفسه، ولن يتسنى له ذلك إلا بالاعتراف والتطهير الذي يكشف النقاب عن حقيقة النفس الإنسانية دون خوف.

ومنذ أن هبط الإنسان إلى الأرض، واندمجت روحه السماوية بمادية الأرض الطينية، وهو يقترف الأفعال والأعمال والأقوال التي تجعله دائمًا في عملية تأنيب مستمر للضمير، يحاول الفرار منه، فلا يجد أمامه سوى الإقرار بأفعاله وأقواله.

والمتأمل في التاريخ الإنساني، يجده مليئًا بالقصص التي تدور حول الاعتراف، أو الإقرار بالذنب والتوبة من الوجهة الدينية[1] ومن هنا نشأ ما يعرف بأدب الاعتراف، الذي انتقل إلى مجال الدراسات الأدبية، واتخذ صورًا عدة: منها التراجم، ومنها السيرة الذاتية[2] وصولًا إلى ما يُعرف بأدب الاعتراف.

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية: انظر، أحمد فريد، مواقف إيمانية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٩مص٢٦٣-٣٠٧.

(٢) من أشهر كتب السيرة الذاتية: (الأيام) لطه حسين، و(حياتي) لأحمد أمين، و(أنا) للعقاد، و(مذكرات نائب في الأرياف) و(عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم.

ومن أشـــهر الأدباء المعاصرين الذيـــن كتبوا في الاعتراف: الدكاترة (زكي مبـــارك)[1] الذي اتخذ عنـــده هذا الجانب آفاقًا رحبة: شـــعرًا ونثـــرًا، وله فيه نتـــاج غير قليـــل، وإن لم يفرد للحديـــث عنه كتبًا خاصة، وإنما جـــاءت اعترافاته في ثنايا كتبه الكثيرة، ومقالاته التي لا تحسب بالعشرات بل بالمئات والألوف.

ويمكـــن الإشـــارة – منذ البدء – إلى أن ما قدمـــه (زكي مبارك) في هذا المجال أكبر وأضخم وأصعب من أن نتناوله في مثل هذه الصفحات القليلة، ويرجع ذلك إلى سببين، الأول، إن نتاج (زكي مبارك) في هذا المجال موزع في ثنايا كتبه ومقالاته الكثيرة – كما أشـــرتُ – والسبب الثاني، يكمن في أن زكي مبارك لم يترك لنا مذكراتٍ أو كتباً تدل على أنهـــا قصة حياته، وهو مـــا اعترف به صراحة بقولـــه: "أنا لا أُدوِّن مذكرات لما يصادفنى في حياتي من متاعب، وإنما اختزن ذلك في قرارة نفسي، فإذا لاحت فرصة دَوَّنتُ ما رأيت"[2].

---

(١) هو: محمد زكي عبدالســـلام مبارك، واســـم الشـــهرة: زكي مبارك، ولد في الخامس من أغســـطس عام ١٨٩١ في (ســـنتريس) إحدى قرى محافظة المنوفية، وتوفي في ٢٣ يناير عام ١٩٥٢م.

انظر، فخر الدين الزركلـــي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م، ج٣، ص٤٧. ولقـــب بالدكاتـــره لحصوله على ثلاث درجـــات للدكتوراه: الأخلاق عنـــد الغزالي، والتصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، والنثر الفني في القرن الرابع .

(٢) البلاغ – ١٩ أغسطس ١٩٤٧ – الحديث ذو شجون.

وقد تم الاعتماد على مقـالات وخواطر (زكي مبارك) الاعترافية، وخاصة تلك المقالات التي حملت عنوان (الحديث ذو شـجون)، التي كانت أشـبه بالاعترفـات الصادقة؛ فقد قال فيهـا (زكي مبارك) كل شيء له وعليه.

ومع ذلـك، فإنه قد تمَّ التوصل إلى أن (زكـي مبارك) كان في حرج مـن أن يقـول هذه قصة حياتـي؛ لأنه كان يدرك- فيمـا أعتقد – أن خيال الأديب تدخَّل فيها، وقام بتوشـيات يقتضيها السـياق الفني، وهو محق في ذلك؛ لأن "التراجم الفنية تستدعي ترتيبًا خاصًا للوقائع والأحداث، مراعاة لشروط فنية خاصة، مما يبعد بها عن جو التاريخ كما وقع. ونحن لا نستطيع أن نقول على سبيل القطع الجازم والاعتقاد اللازم، إن شـخصية العقاد هي كما تصورها قصة (سارة)، وشخصية توفيق الحكيم هي كما تصورها قصة (عصفور من الشرق)، وإن كان في تينـك القصتين كثيرٌ من ملامح هاتين الشـخصيتين؛ لأن للعمل الفني دخلًا كبيرًا خطيرًا في مسار الوقائع والأحداث"[1]. وهذا يعنى أن السير الذاتية لا يتحرى فيها الأديب الواقع كما هو، وإنما يرسم بها صورة حياة لنفسه.

ويعـود اختيارنا لزكي مبارك نموذجًـا لأدب الاعتراف في ثقافتنا

(١) عبـد اللطيف عبدالحليم، المازني شـاعرًا، مكتبة النهضـة المصرية، ط٣، ١٩٩٤، ص١١.

العربية المعاصرة[1] لسببين، الأول: أننى لا أعتقد أن شخصية أدبية أوضح في ملامحها، وأصرح من شخصية (زكي مبارك) في كتاباته وخواطره؛ لأنه من السهل الوصول إلى شمائل هذه الشخصية من آثاره وكتاباته، فهو – كما سيتضح– من أكثر الكُتاب المعاصرين صراحة في الحديث عن نفسه، وأجرأهم في الكشف عن دخائله.

أما السبب الثاني: فهو أن (زكي مبارك) رغم أنه له مقالات لا تُعد ولا تحصى– ناهيك عن كتبه – فحتى الآن لم تُدرس كتاباته الاعترافيه بصورة كافية.[2] يضاف إلى السببين السابقين سببٌ ثالث

(١) ظهر كثير من الكتب التي تناولت أدب الاعتراف عند عدد غير قليل من الأدباء العرب المعاصرين منها:

– نزار وأنا: أطول قصيدة اعتراف، للمحاور مفيد فوزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

– أحمد عبدالمعطي حجازي، لم يبق إلا الاعتراف (شعر)، أخبار اليوم، دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٨٩م.

– لويس عوض، أوراق العمر: سنوات التكوين، مكتبة مدبولي، ١٩٨٩م.

– عبدالناصر هلال، لويس عوض، الرديكالي الذي باح بسره للنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

(٢) تناول عدد من الباحثين نتاج الدكتور زكي مبارك بالدراسة الأكاديمية نذكر منهم:

– محمد عبدالحكيم، زكي مبارك صحفيًا، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، ١٩٨٤م.

– العربي درويش، زكي مبارك شاعرًا، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٨٣م.

– عبدالصبور ضيف، زكي مبارك حياته وأدبه، رسالة دكتوراه، جامعة أسيوط، ١٩٨٠م.

وهو طموحي الشـخصي في ايجاد توازن بين كتابات (زكي مبارك) في الأدب عامـة والنقد خاصة، وبين كتاباته الاعترافية؛ لتضحى الرؤية أكثر عمقًا، وأوسـع خـبرة، أوصورة من صور العـدل ورفع الظلم عن أديـب كبير عاش مظلومًا، ومـات مظلومًا؛ لأننا كما يقول بدر الديب "مازلنـا نغمط الدكتور زكي مبارك حقـه كواحد من أكبر نقادنا إن لم يكن أكـبر نقادنا إلى الآن في نظري، ففي كثير من مقالاته جهد نقدي مبدع"[1].

تحرير مصطلح الاعتراف:

يتدخـل مصطلـح الاعتراف، ويتشـابك مع عدد مـن المصطلحات الأدبيـة الأخرى التي تتشـابه، أو تقترب معـه في المعنى، كمصطلح السيرة والإقرار. ولاشك في أن تقديم تعريف محدد لمصطلح الاعتراف، هو إحدى الركائز الأساسـية التي من خلالها يستطيع المتلقي التفريق بين الاعتراف، والإقرار، والسيرة الذاتية.

وبالنسبة لمفهوم السـيرة الذاتية، يجدر الإشارة إلى أن هناك فرقًا بين مفهوم السيرة الذاتية، وبين رواية السيرة الذاتية، فالأولى نُعنى بها "ذلك النوع الأدبيّ الذي يتناول بالتعريف حياة إنسان ما، تعريفًا

– عبدالمقصود عبدالغني، زكي مبارك حياته وأدبه، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٢م.

(١) بدر الديب، مجلة الكاتب – نوفمبر ١٩٧٥م – عن الأدب والفن.

يقصـر أو يطول. فـإن جانبًا كبيرًا من جوانب الحياة في هذه السـيرة يقوم على التفكير والتأمل من جهة، والسلوك والعمل من جهة أخرى – لكنهـا – إلى جانب هذا وذاك فن أدبي جوهره التواصل اللغوي «[1] ويكتبهـا صاحبها أو يُمليهـا أو يحكيها، وقد يطلق عليها (الترجمة الذاتية أو القصدية) لأن صاحبها يكتبها أو يمليها بنفسه.

أما رواية السـيرة الذاتية فهي " بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ، وكشـف عـن مواهبه وأسـرار عبقريته من ظـروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيط الأثر الذي خلَّفه في جيله"[2] ولا يكتبهـا صاحبها إنما تسـطرها أقلام الآخرين عنه، ولذا تُسـمى بالسيرة الغيرية، أي التي يقوم الغير بكتابتها.

وعلى هذا، فإن كاتب السـيرة الذاتية ذاتي قبل كل شـيء، ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد عليها، أما كاتب السيرة الغيرية، فيقف موقف الشـاهد لا القاضي، فهو ينقل السـيرة كما يرى دون أن يصدر عليها أحكامه [3].

وبالنسبة لمفهوم الإقرار، فقد جاء في لسان العرب: أقر بالحق؛ أي اعترف به، وقد أقرره عليه، وقرره بالحق غيره حتى أقر[4].

---

(١) عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، ١٩٩٢م، ص١٥.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٣) انظر السابق، ص١٦.

(٤) ابن منظور، لسـان العرب، تحقيق: عبـدالله الكبير وآخرين، دار المعارف، د.ت، مادة [قرر].

أما بالنسبة لمصطلح الاعتراف – موضع الدراسة – فيدور في اللغة حول الإقرار، وهو مصدر اعترف بالشيء؛ أي أقر به، وهو مأخوذ من مادة (ع ر ف) التي تدل على معنيين: الأول تتابع الشيء متصلًا بعضه ببعض، ومن ذلك عُرْفُ الفرس، والآخر السكون والطمأنينة، ومنه المعرفة والعرفان، تقول عرف فلانًا عرفانًا ومعرفة، وهذا أمر معروف؛ لأن من عرف شيئًا أطمأنَّ إليه، ومن أنكره توحَّش منه ونبا عنه. ومن هذا المعنى قولهم: اعترف بالشيء، إذا أقرَّ، كأنه عرفه فأقر به [1]. وجاء في الصحاح: والاعتراف بالذنب: الإقرار به واعترفت القوم إذا سألتهم عن خبر لتعرفه[2].

ويقال: عرف بذنبه عرفًا واعترف اعترافًا أقر به[3] وضد الاعتراف الجحود والنكران وفي التنزيل: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (النحل: ٨٣) فالاعتراف بذلك قريب من معنى الإقرار السابق، ولا يختلف المعنى الاصطلاحي للاعتراف عن معناه المألوف في اللغة، وأرى أن الاعتراف هو عبارة عن إقرار الشخص بأفعاله

(١) انظر، أبا الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ٢٨١/٤، ١٩٩٩م.

(٢) انظر، إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح – تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م، ١٤٠٢/٤.

(٣) انظر، ابن منظور، لسان العرب، سابق مادة (عَرَفَ).

وأقوله، وبأفضال الآخرين عليه، لا يجحدها أو يتناساها، ولذا قيل: ومن يشكر المخلوق يشكر لربه.... ومن يكفر المخلوق فهو كفور [1].

ومن هنا يمكن القول: إن الاعتراف في معناه قريب من الإقرار، ولكنه يبتعد عن مفهوم السيرة الذاتية، التي قد يراعى فيها الأديب المحيط الذي يعيش فيه؛ مما يدفعه إلى الحذر في الكشف عن آرائه والاعتراف بأفعاله وأقواله؛ خوفًا من السلطة الحاكمة، أو حفاظًاعلى المكانة الاجتماعية التي وصل إليها الأديب وأسرته. أما في الاعتراف، فإن الكاتب ينقد نفسه، ويكشف عن دخائلها، ويقر بأفعاله وأقواله إيجابًا وسلبًا، ولا يقوم بتوشيات فنية يقتضيها العمل، وإنما يترك نفسه على سجيتها.

إذن هناك فرق كبير بين السيرة الذاتية والاعتراف، يتمثل في الحرية الممنوحة للكاتب في كليهما وعلى العكس من ذلك تمامًا، نجد الاعتراف لا يلزم بأي شيء من قواعد الكتابة، ويتحلى بالموضوعية البعيدة كل البعد عن الزهو بالنفس والإعجاب بها[2].

---

(١) أبو حاتم محمد بن حبان البستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م، ص٣٤٩.

(٢) حاتم دياب أحمد، أدب الاعتراف في نثر عبدالرحمن شكري، دراسة أسس الإبداع الفني، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الألسن، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٨م، ص٦.

الاعتراف في الثقافتين الغربية والعربية:

ارتبط الاعتراف في الثقافة الغربية بفكرة التطهير، ونُعْنى بها الاعتراف داخل الكنائس أمام القسيس؛ لراحة الضمير «والاعتراف بهذا المفهوم ليس غامضًا عند الأوربيين الذين مارسوه صراحة في أشكال متعددة من الأدب (مذكرات- رسائل- سير ذاتية)، ولعل من أبرز الاعترافات التي كان لها صدى في عالم الأدب والسياسة، اعترافات جان جاك روسُّو، التي تعد إلى حد ما دستور الثورة الفرنسية، وكذلك اعترافات القديس أوغسطين.

وهذا النوع من الأدب مستمد - فيما أعتقد- من التعميد أو الصلب الذي كان يُمارس؛ لإجبار المذنبين على الاعتراف والإقرار بما ارتكبوه. أما عن الاعتراف في الثقافة العربية، فقد ارتبط هو الآخر بالدين، ولكنه على العكس من الاعتراف في الثقافة الغربية، فإذا كان الاعتراف في الغرب يكون بين المعترف ورب الكنيسة، فإن الأمرعلى خلاف ذلك في الثقافة العربية الإسلامية، حيث يكون الأمر بين المعترف والله تعالى دون وسيط، وهو ما عُرف بالإقرار بالذنب والتوبة والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال[1]. وقد استمد الأدباء والشعراء

(١) انظر، علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٧٤.

العرب والمسلمون من التوبة والإقرار بالذنب مادة خصبة وثرية لهم، وليس أدل على ذلك من أشعار أبي العلاء المعريّ التي كانت صورة صادقة لحياته ورغباته، كما كانت أشعار أبي فراس الحمدأني نوعًا من الاعتراف، توجه في معظمها إلى ابن عمه سيف الدولة الحمداني شاكيًا إليه حاله وهو في الأسر.

كما كان شعر الغربة والحنين، تعبيرًا صادقًا عن النفس المغتربة، واعترافًا صريحًا من قائله بآلام الغربة، كما هو الحال في بعض أجزاء الشوقيات.

وإذا يمَّمنا وجهتنا نحو النثر، نجده –هو الآخر– مليئًا بالنماذج الاعترافية، مثل (طوق الحمامة) لابن حزم، وما المقامات إلا نوع من الاعتراف يلجأ كاتبها لنقد العيوب السائدة في المجتمع، وإبداء رأيه فيها.

وفي بداية عصر النهضة، نجد ذكريات رفاعة الطهطاوى في باريس المعروفة باسم (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي نشره في عام ١٨٣١م بعد قضائه حوالى ستة أعوام في البعثة العلمية التي أرسلها الوالي محمد علي إلى فرنسا عام ١٨٢٦م.

وإذا كانت النماذج الشعرية والنثرية السابقة، قد جاء الاعتراف فيها ضمن تلك الأعمال، فإن هناك نماذج نثرية جاءت متضمنة في أغلبها لاعترافات كاتبها، مثل رواية (الخبز الحافي) للروائي المغربي محمد شكري، وروايتَيْ (الفيافي) و(بلاد الغربة) للكاتب السكندري

سعيد بكر، ورواية (عائد إلى حيفا) للروائي الفلسطيني غسان كنفاني.

بما يؤكد أن هذا النوع من الأدب محكوم في نشأته وتطوره بأحوال المجتمع، وظروف الأديب نفسه، ومدى الشجاعة التي يتحلَّى بها في نقد ذاته أولًا، ثم المجتمع من حوله ثانيًا.

وإذا كانت الدول الحديثة تتَّبع وسائل عدة لحمل الأشخاص على الاعتراف باستخدام جهاز كشف الكذب، والتنويم المغناطيسي، فإن الاعتراف في الأدب على عكس ذلك تمامًا، فالأديب يلجأ إليه باختياره، دون انقضاء مرحلة معينة من مراحل حياته، وإنما هو سرد متتابع – وقد يكون غير منظم – لوقائع هذه الحياة بحلوها ومُرها.

فهذه الأعمال تكشف الحياة التحتية لمؤلفيها، وتعري في صراحة – إلى حد ما – المجتمع بإظهار عيوبه وسلبياته، فهي جميعًا تلتقي في محاور مشتركة كثيرة منها ارتباط الألم والتطهير البشري بفكرة الثورة، والتمرد على الواقع.

غير أن الكشف عن هذه المحاور المشتركة في أدبنا المعاصر ينبغي أن يمر– في رأيي – من خلال استخدام المنهج النفسي، الذي يكشف عن الدوافع الحقيقية وراء اعتراف الأديب العربي؛ لأن هناك علاقة وثيقة بين علم النفس، وتحليل الأعمال الأدبية، يتضح ذلك من أسماء الكتب الكثيرة التي تغذى المكتبة العربية بكثيرمن الدراسات النفسية حول الأديب وإنتاجه الأدبي[1]. كما ظهرت الكثير من النظريات

(١) من هذه الكتب:

النفسية المهتمة بهذا الجانب، مثل: نظرية التحليل النفسي لفرويد، ونظريــة الذات لــكارل روجــرز، ونظرية الســمات لألبورت، وهي نظريات تســاعد على فهم الشخصية المُعترِفة من زوايا متعددة، يجمع بينها كشــف أغوار المعترف، وتهدف إلى تفسير السلوكيات المحددة لها[1].

فهــذه النظريات النفســية ترى أن "الإبداع ليــس إلا حالة خاصة قابلــة للتحليل؛ لأن كل عمل فني ينتج عن ســبب نفســي، ويحتوي على مضمون ظاهــر وآخر خافٍ، مثله مثل الحلم أي: انعكاس لنفس المؤلــف. من هنا كان لزامًا على دارس الأدب أن يتلمس بواعث الإبداع النفسية"[2].

شذرات مطويَّة من اعترافات زكي مبارك:

يحتــاج الحديث عن اعترافات زكي مبارك إلى مجهود مضن؛ لأنه لم يترك لنا – كما أشــرنا – مذكرات يمكن أن نستشف منها جوانب

– عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من أدبه، دار الكاتب اللبناني، ط١، ١٩٨٠م.
– عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٦٢م.
– مصطفي سويف، الأسس النفسية في دراسة الأدب ونقده، دار المعارف، ١٩٦٧م.
– عبدالعزيز شرف، الأسس الفنية للإبداع الأدبي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

(١) انظر، نبيلة الشوربجي، وعفاف دانيال، علم النفس والشخصية، الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢م، ص٢٩–٣٩.

(٢) حاتم دياب أحمد، أدب الاعتراف في نثر عبدالرحمن شكري، سابق، ص٢٠.

حياته، ولذا كان لزامًا علينا البحث الدقيق عن هذه الحياة بين سطور كتبــه، ومقالاته الكثيرة، التي وقف فيها مُغرِّدًا خارج سـْرب أدباء عصره، وسبحَ ضد التيار، وسـجل آراءه وأفكاره دون خوف، وخاض مــن أجل الدفاع عن آرائه وأفكاره أعنف المعارك والمسـاجلات الأدبية حتــى سمّاه بعض نقادنا " الملاكم الأدبي في ثقافتنا الحديثة"[1]. ولعل هذه الشــذرات من اعترافات زكي مبارك هي المفتاح لشخصيته، التي تميــزت بالصدق والصراحــة حتى المؤلمة منها، والــذي أكدها حديثه الدائم عن نفســه، الذي يُعد – في الحقيقة – ترجمة باطنية لا تخفي فيها خالجة من حياته، يرسلها متشحةً بروحه، وطريقته في المبالغة، والاعتداد بالنفس.

أولاً: سنوات التكوين:

ونقصد بها نشأه زكي مبارك، وحياته الأولى في قريتة (سنتريس)، وميلاده، وأســرته، وهي من الأمور الذي كان فيها زكي مبارك مفرطًا في الحديث عن نفســه خلالها، كأنه في حرج آثم إنْ لم يفضِ بذاته إلى القرّاء.

وإذا كان بعض الدارسين قد ذهب إلى القول بأن من "خُلق العربيّ ألّا يتحدث عن نفسه بقوله: أنا، ومن العجيب أن ذلك يجوز للشاعر ولا

(١) أحمد حسن الزيات، الرسالة، ٢٩ يونيو ١٩٤٢، الصفاء بين الأدباء.

يجــوز للكاتب"[1]. فإن هذا القول لا ينطبق بأي حال من الأحوال على زكي مبارك، الذي جعل (الأنا) أســاس معارفه ومساجلاته الأدبية. يقــول زكي مبارك عــن يوم مولده: " في الخامس من أغســطس ١٨٩١ ولدتــني أمي، فأضيــف إلى الوجود خيرٌ جديدٌ، وشــرٌّ جديد" ويقول أيضًا: « وأنا مولود في الخامس من أغســطس ســنة١٨٩١ في سنتريس منوفيــة [2]. " فهو يعترف – بضمير الأنا – بأن يوم مولده كان فتحًا جديــدًا على الدنيا، ســواء أكان بالخير أم بالشــر. وقــد علَّق الكاتب الصحفي محمود صلاح على هذه الكلمات بقوله: " ولأن الشــر لم يأتِ من زكي مبارك، بل كان الشر فيمن حوله، فقد غادر الحياة بعد كفاح مرير، صنع فيه من أجل الأدب الكثير"[3].

نشــأ (زكي مبارك) في قرية (سنتريس) المطلة على الرياح المنوفي، وتقع بالقرب من فرع (رشــيد)، مما جعلهــا مميزة بهوائها الطيب، ومناظرها الرائعة. وهو يعترف بأن هذه البيئة كانت السبب في نبوغه بوصفه شاعرًا فيقول:

في ســنتريس وروضهــا ..... نبــع الصــدوح العنــدليب

(١) حاتم دياب، أدب الاعتراف، سابق، ص٣.
(٢) زكي مبارك، ديوان: قصائد لها تاريخ، دار الشعب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٠٩.
(٣) أخبار اليوم – ٦ أغسطس ١٩٧٧ – الدكاترة زكي مبارك.
(٤) قصائد لها تاريخ، سابق، ص١٠٩–١١٠.

من قلبه شـعـر يثـور ..... كـأنه وهـج اللهـيب
وسـرى اللهيبُ بشعره ..... فغدا أزاهر من مشـيب[٣]

وفي (سـنتريس) تعلم زكي مبـارك الجد والعمـل المتواصل، ومن بيئتها اكتسـب الصراحة والقوة وطيبة القلب، مما جعله يفخر دومًا بأنه فلاح، وبأن أثر الفأس والمحراث منقوشةٌ على يديه، وبأن أخلاق القريـة تلازمه أينما كان، فيقول: " وقد اشـتغلت بالفلاحة في أملاك أبـي، وكانت أملاكًا مبعثرة في أراضٍ كثـيرة، فاقترحت على أبي أن نؤجِّـر بعضها وأن نزرع الباقي، فقال أبـي أفضل من هذا أن نزرعها كلها بأيدينا"[١] وهذا ما يفسر لنا اعتماد زكي مبارك على نفسه طوال حياته، وعدم لجوئه للوساطة، أو المحسوبية في شق طريقه.

والحقيقة أن زكي مبارك قد أكثر من الحديث عن نشـأته في قريته في كتبه، ومقالاته وأشـعاره، حتى إنه كان يكتب مقالًا ثابتًا كل عام في جريدة (البلاغ) تحت عنوان (العيد في سـنتريس) وجعل من نفسه شاعرها، وجعل سنتريس من أخصب البلاد وأهلها من أخصبها، فهو يقول "وأخصب البلاد في مركز أشمون، هي سـنتريس، وأخصب بقاع سـنتريس هو ما ورثته عن أبي وجدي، وأجمل دار في سنتريس، هي

(١) زكـي مبارك بقلم زكي مبـارك، إعداد وتقديم، كريمة زكي مبارك، مطبعة الفجالة الجديدة، ١٩٨٨م، ص١٤.

دار شاعر سنتريس"[1].

وقد أحسَّ معاصرو (زكي مبارك) بمكانة (سنتريس) من نفسه، وتباروا بذكر اسمها تكريمًا لشخصه، ومن هؤلاء الشاعر إبراهيم ناجي حين قال في قصيدتة (الدكتور زكي مبارك في سنتريس، وفي الأزهر، وفي باريس) محتفيًا بزكي مبارك بعد حصوله على الدكتوراه الثانية من فرنسا:

في حمى سنتريس شب غلام .... شاعري الكلام والأنظار
أزرق العين هادئ هدأة البحر .... بعيد الرَّضِيّ بعيد القرار[1]

نشأ زكي مبارك – إذن – نشأة ريفية، كان يعتز بها في كل بيئة هو فيها، على حين يأنف بعض الأدباء – إن كانوا من الريف – من كلمة فلاح، أما زكي مبارك، فكان يفخر دائمًا بهذا الوصف، ويعتبره وسامًا يتحلى به في هذه الحياة، ليصدق فيه قول أحمد زكي باشا: " إن زكي مبارك عاش في باريس ما عاش، ظل مع ذلك فلاحًا من سنتريس[3]." وكما اعترف زكي مبارك بفضل سنتريس عليه، فكذلك اعترف بفضل والديْه عليه، أما والده فكان له الفضل في اتصال زكي مبارك بالطرق الصوفية؛ فقد كان والده متصوفًا صادق التصوّف،

(١) زكي مبارك، الحديث ذو شجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص٦٥.
(٢) كريمة زكي مبارك، مقدمة ديوان: قصائد لها تاريخ، ص١٤.
(٣) محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، مكتبة مصر، ٢٠٠٠، ص٤٢.

وكان قد أخذ العهد على شيخ اسمه (أبو زيد)[1]. ومن هنا بدأ اتصاله بالصوفية، فدرج على احترامهم، بل أخذ ينشد كلامهم، ويحفظ بعض الأوراد الشاذلية[2]. ولعل اتصال زكي مبارك بالصوفية في هذه الفترة المبكرة من حياته – بفضل والده – كان من أظهر العوامل التي وجهته – فيما بعد – إلى أن يؤلف رسالتيه الأخلاق عند (الغزالي) والتصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق.

ويعترف (زكي مبارك) بفضل والده، ودوره في إكمال دراسته في مصر وفي فرنسا، يعترف بذلك شعرًا ونثرًا، ومن ذلك قوله شعرًا:

مازلت أمرح في نعمى وعافية .. من نيلك الجزل ومن رأيك الحسن
وأسهر الليل في علم وفي أدب .. أبغي رضاك عن قصدي وعن سنن
فاليوم أهديك ما أبدعت من أثر .. أبقي على الزمن الباقي من الزمن[3]

وبعد وفاة الوالد رثاه (زكي مبارك) نثرًا معترفًا بأنه فقد كنزًا غاليًا: «الآن أشعر أنني فقدت كنزًا من الكنوز الغالية، فقد كان يروق لى أحيانًا أن أدعو بعض الكبراء لزيارة سنتريس، وكنت في ذلك أمثل الأثرة والأنانية، كنت أحب أن أقول: هذا أبي ملء العيون والقلوب، فأصبحت محرومًا من تلك المتعة النفسية، وعدت وليس بي

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص١٩.
(٢) العربي درويش، زكي مبارك شاعرًا، سابق، ص١٩.
(٣) زكي مبارك، ديوان زكي مبارك، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٣م، ص١٠٢.

من الحسب والنسب إلا ذكرك في قلوب من عرفوك"[1]. كما يعترف بفضل أمه عليه كاتبًا وشاعرًا بقوله:

«وأمي هي التي ألهمتني روائع ما أنتج، وهي التي أخرجت من سنتريس وأنجبت أعظم كاتب وأجمل شاعر [2]. ولعل السبب في حرص زكي مبارك بالاعتراف بفضل والديْه عليه راجع إلى دورهما – كأسرة مصرية نموذجية – في النبوغ العلمى الذي وصل إليه، خرج منها إلى المدينة، وما طرأ عليه من تحولات كمًّا وكيفا[3].

ثانياً: مراحل التعليم

١ - في الأزهر الشريف:

كان لوالد زكي مبارك من الفهم الناضج ما لم يكن لنظرائه من أهل قريته، فما إن أتم زكي مبارك حفظ القرآن الكريم، حتى ألحقه والده بالأزهر الشريف؛ لشغفه بالعلوم الدينية. كان ذلك في عام ١٩٠٨، وكان عمر (زكي مبارك) وقتها سبعة عشر عامًا [4]. وفي الحقبة الأزهرية، أظهر زكي مبارك تمرده على علومه وما يدرس به، فاتجه

(١) زكي مبارك، بقلم زكي مبارك، سابق، ص٦٦.
(٢) السابق، ص٢٢.
(٣) انظر، لويس عوض، أوراق العمر، مرجع سابق، ص٣١.
(٤) انظر، محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، سابق، ص٢٤.

إلى روض الأدب يقــرأ روائعه القديمة والحديثة، وأخذ يتطلع إلى آفاق جديــدة غير هذه الآفاق الضيقة، التي تقتل في نفوس الشــباب الطموح والتوثب.

إن أقســى مــا أوحش زكي مبارك في الأزهر بُعــده عن الأدب، مما أحث في نفسه ثورة نفسية، حاول التغلب عليها بحفظ الشعر، ونظمه سرًّا، وأصبح ثائرًا على هذه الأوضاع التي لا تساير العصر.

يقــول زكي مبــارك معترفًا بهــذه الحقيقة "وكنــت وأنا طالب في الأزهر أحفظ الشعر ســرًّاوأنظمه سرًّا؛ لأن الشعر كان ينافي الأزهرية الصحيحــة، وكان الاهتمام به من سمات الغافلين عن حقائق الشــروح والمتون [1]. كما يعترف بأن أيامه في الأزهر كانت سوداء بقوله: «هاتوا شبابي أيها الرؤساء، فقد ذهبت به أيام الأزهر السوداء"[2].

وقد شــهدت حياة زكــي مبارك في الحقبة الأزهريــة تمزقًا عنيفًا في نفســه وعقله، فهو مذبذب في انتمائه السياســي: ينضم إلى الحزب الوطــني دون أن يندمج فيه اندماجًا كاملًا؛ لاعتداده بنفســه وحرصه على استقلال إرادته، ويظهر في الوقت نفسه تعاطفه مع حزب الوفد،

(١) فاضل خلف، زكي مبارك، الكويت، ط٢، ١٩٨٢م، ص١٨.

(٢) زكــي مبارك، البدائع، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر، ط٢، ١٩٣٥م، جـ١، ص٢٦٧.

وهــو يعترف بذلك بقولــه: " فأنا عند أنصار الحزب الوطني شــعبي يناصر الوفديين، وعند الوفديين خيالي يتشــبث بالملحقات من ســلع زيلــع إلى بغبوب، وأنا بين المؤمنين ملحد، وبين الملحدين مؤمن، وأنا بــرٌّ عند الفجار، وفاجر عند الأبــرار، فأنا في كل بيئة أجنبيٌّ وفي كل أرض غريب[1].

لقــد كانت حياة زكــي مبارك في الأزهر إذن حيــاة قلق وحرمان، مترددًا بين الأحزاب السياســية، متمردًا على الأزهر وعلومه، ولكنه كان يحمل كل تقدير في أعماقه لمشايخه، خاصة الشيخ (سيد المرصفي)، أحــد رواد التجديد في الأزهر، والذي اعــترف بفضله عليه بقوله: " عرفتُ بفضله أســرار اللغة العربية، واســتطعت أن أرفع رأســي بين أساتذة الأدب وحمَلة الأقلام"[2].

٢ - في الجامعة:

اتجهت آمال زكي مبارك بعد إتمام دراسته الأزهرية إلى الجامعة المصريــة الوليدة، وينتســب إليها رسمياً عــام١٩١٦[3]. وفي الجامعة المصريــة لم يترك زكي مبارك اندفاعه وجرأته وعنفه، ففي عام ١٩١٩

(١) زكي مبارك، ذكريات باريس، دار الهلال، ٢٠٠٢، ص٢٥٩.
(٢) زكي مبارك، البدائع، سابق، جـ١، ص٦٦.
(٣) انظر، محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، سابق، ص٢٦.

أثار ثائرة رجال الدين بمحاضرة ألقاها عن شاعر الحب والغزل (عمر بن أبي ربيعة) اعترف فيهـا بأن "الحب نفحة من نفحات النبوة[1]. " فهُوجِم ولكنه لم يبالِ ؟ ثم جمع هذه المحاضرات في كتاب بعنوان: حب ابن أبي ربيعة وشعره، اعترف فيه صراحة بمذهبه الأدبي بقوله "الأدب كالفـن يجب أن يسـمو عن الأوضاع والتقاليـد، حتى لا يفتر ويضـوى تحت رحمة المتزمتين من رجـال الدين، ورعاية المتحجرين من دعاة الأخلاق ... والأدب المسـتور يغشى بالحجب المحلية، التي لا ندري أتبقى سـائغة مقبولة، أم يعدو عليها البدع المستطرف فيلقى بها في مهاوي الخمول"[2].

وبعد حصوله على شـهادة الليسـانس في العلوم الأدبية والفلسفية عام ١٩٢٣، تطلعت نفسـه الوثّابة إلى إحراز لقب علمي جديد، فتقدم للحصول على الدكتوراه بعد تخرجه مباشـرة، وكان موضوع رسالته: الأخـلاق عند الغزالي، تضمنـت هجومًا عنيفًا علـى الإمام الغزالي؛ لموقفة السلبي أمام مشـكلات عصره، واعتزاله الحياة السياسية أثناء الحروب الصليبية.

أما عن السـبب في اختيار زكي مبارك لعنوان رسالته، فقد اعترف

(١) زكـي مبـارك، حب ابن أبي ربيعة وشـعره، الشـركة المصرية العالمية للنشـر – لونجمان، ط١، ١٩٩٩، مطبوع مع كتاب: الأسمار والأحاديث، ص١٨.

(٢) السابق، المقدمة.

بأن الدافع الشـديد وراء ذلك هو التشـابه بينهما في كثير من الأمور، أفصح عنها بقوله: »على أن الغزالى- رحمه الله- عاني من حاسديه مثل ما عانيت، ولاقى ضعف ما لاقيت"[1].

٣ - في باريس:

بعد حصـول زكي مبارك على الدكتـوراه الأولى عام ١٩٢٤، تطلع للسـفر إلى باريس؛ ليكمل دراسته بها تمامًا كأساتذته المصريين. وفي الحقيقة أن زكي مبارك كانت نفسـه تهفو للدراسة في الخارج، وهذه العبـارة التي نذكرها هنا دليـل واضح على اعترافه بمـا نقول. فهو يقـول عن موقفه من البعثات العلمية: « أمـا البعثات العلمية، ويلاه مـاذا أقول ؟ اللهم لا تمتني قبـل أن أرى بعيني كيف يدرس العلم في الممالك، التي أصبح أهلها سـاده الأمم، وأسـاتذة الشعوب "[2]. فهذا الفقرة الاعترافية تكشف عن تطلعه للسفر إلى الخارج، كما تكشف عن حسرته التي لازمته من جرّاء استبعاده من البعثات العلمية.

وقد بلغت هذه الرغبةُ أوجّها في عام ١٩٢٧، فغادر مصر متجهًا إلى باريس؛ ليواصل دراسـته العليا هناك على نفقته الخاصة في عصامية فريـدة نادرة، وبمعاونة والده، الذي أعانـه بالمال مكّنه من الالتحاق بجامعة باريس نعلم هـذه العصامية من اعترافه أثناء حديثه إلي طه

(١) زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، دار الشعب ١٩٧٠ (فاتحة الكتاب).
(٢) فاضل خلف، زكي مبارك، سابق، ص٤٣.

حسين، حين رفض تجديد عقده في كلية الآداب «لقد ذهبت أنت فأتممت دراستك في باريس، وذهبت أنا، فأتممت دراستي في باريس، فهل تعلم ما الفرق بيني وبينك ؟ اسمع أيها الصديق القديم البالي: ذهبت أنت على نفقة الجامعة، ومضيت أنا متوكِّلًا على الله، فأنفقت ما أدخرت من عرق الجبين "[1]. وقد أعد زكي مبارك نفسه لهذا اليوم منذ أن كان طالبًا بالأزهر، فألمَّ باللغة الفرنسية وأتقنها، وبدأ يتصل بالثقافة الفرنسية، فقرأ الكثير من أمهات الأدب الفرنسي قديمة وحديثه، ساعده على ذلك لسان مرن استطاع به أن يعرف دقائق اللغة الفرنسية.

يسجل (زكي مبارك) لحظة دخوله باريس في عبارة اعترافية صريحة تدل على مدى إتقانه للغة أهلها بقوله: " يوم دخلت باريس كنت أعرف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه إلا الأقلون"[2]. وقد كانت حياة زكي مبارك في باريس قصة من أعظم قصص الطموح والعصامية الفريدة، سجل ذلك بقوله: "فقد كنت أشطر العام شطرين، أقضي شطره الأول في القاهرة، حيث أؤدي عملي، وأجني رزقي، وأقضي شطره الثاني في باريس، أحادث العلماء وأستلهم المؤلفين، إلى أن ينفذ ما ادخرته أو يكاد، ثم صمَّمْتُ على أن أنقطع إلى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت، وكانت العاقبة أنْ أنعمَ عليَّ

(١) زكي مبارك، البدائع، سابق، جـ٢، ص١٦٩.
(٢) زكي مبارك، ذكريات باريس، سابق، ص١٧.

الله – عز شأنه– بالنصر المبين"[1]. وقد اندمج زكي مبارك في المجتمع الفرنسي اندماجًا كاملاً، فكان يقضي أوقات فراغه بين المسارح الأدبية، والمقاهي والأحياء الشعبية، وهذا ما ساعده في وصف باريس وأهلها، فوجد القرّاء في حديثه عنها اعترافات أديب خَبَر الحياة الباريسية؛ بفضل مرونة لسانه في اللغة الفرنسية، يقول زكي مبارك معترفًا بذلك: "عرفت باريس، وأهل باريس معرفة قلما تُقدَّر لإنسان سواي، ولم يكن ذلك فقط لأني اتصلت بها نحو خمسة أعوام، وإنما كان ذلك لأني وصلت إليها بعد يأس وشوق ... فكنت أنهب محاسنها في شَرَهٍ ونَهَم..."[2].

وما كان لزكي مبارك أن يصف الحياة الباريسية بهذا الوصف الدقيق إلا لكونه أديبًا بارعًا له أسلوبه الخاص، الذي مزج فيه بين الأسلوب الصحفي – بعد أن عمل مراسلاً للبلاغ من باريس[3]– والأسلوب الأدبي، بالإضافة إلى شاعريته وحسه المرهف، فجاءت مقالاته عن باريس صوره قلمية شائقة في تصوير أدبي فريد لا يتأتى إلا لمن طُبع على الأدب وفُطر على الشاعرية.

وقد أحب زكي مبارك باريس حبًّا يفوق الحد –على الرغم من

(١) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠١٠م، جـ١، ص٣.

(٢) زكي مبارك، ذكريات باريس، سابق، ص١٧.

(٣) الرسالة – ٢ يناير ١٩٣٩ – أغرب ما رأيتُ في حياتي.

ظروفــه الصعبة- حتــى إنه اندفــع في رثائها بعد ســقوطها في أثناء الحرب العالمية الثانية، وأبدى ألمه لسقوطها؛ لأنها – كما يعترف – مرجع روحه بعد القاهرة وبغداد وسنتريس [1].

وعلــى الرغم من هذا الحــب الجارف لباريس، فــإن زكي مبارك كان يشــعر بالاغتراب الروحــي فيها، ولم يكن يعانــي هذه الغربة الروحية بسبب خذلان في الحب أو إخفاق في تحقيق مجد أدبي، وإنما هــي طبيعة متأصلة فيه فقد كان يشــعر بغربة مُوحِشــة في كل أرض هــو فيها، وذلك مــا اعترف به بقوله: "... فأنــا في كل بيئة أجنبى وفي كل أرض غريــب"[2]. وكما اعترف (زكي مبارك) صراحة بغربته في باريس نثرًا اعترف – كذلك – بغربته شــعرًا، فكان يســهر على شاطئ نهر السين يناجيه، ويبثه أشجانه إلى ساعة متأخرة من الليل، ويسايره بنفس حَيرى وقلب محزون ومن إحدى سهراته على شاطيء نهر السين، اســتلهم زكي مبارك قصيدته (غريب في باريس)، يقول فيها معترِفًا بغربته وشقائه:[3]

يا جنة الخلد كيف يشقى ... في ظلــك النــازح الغريــب

(١) الرسالة – ٢٤ يونيو ١٩٤٠ – مدينة النور تعاني الخطوب.
(٢) زكي مبارك، ذكريات باريس، سابق، ص٢٥٩.
(٣) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، مكتبة مصر، ط٢، ١٩٨٨م، ص٣٠٥.

النـــاس في لهوهم نشـــاوى ... ودمعـــــه دافـــق صبيـــب
يقتات أشـــجانـــه وحيـــدًا ... فـــلا صديـــق ولا قريـــب
أقصى أمنيـــة حين يمســـى ... أن يهجع الخفق والوجـيب[٢]

والإحســـاس نفســـه قد صاحبه في وطنه، وبعـــد عودته إليه ظافرًا بأعلى الدرجات العلمية، نحس ذلك من اعترافه بقوله:

كنت في باريس أشكو غربتي ... كنـــت في بغـــداد أشـــكو زمنى
وأنا اليوم أعاني غربـــــــــة ... مرة أشـــقى بهـــا في وطـــني[١]

وقـــد اعترف زكي مبـــارك بصعوبة حياتـــه في باريس، ووصفها بالســـنين العجاف بقوله: "وكان أصعب تلـــك المتاعب هو هجرتي إلى باريس، فقد أقمت فيها سنين كانت من أعجف السنين"[٢].

وعلـــى الرغـــم من ظروفه القاســـية، فإن زكي مبارك، اســـتطاع أن ينجز رســـالته (النثر الفني في القرن الرابع)، التي أثبت فيها بالأدلة والبراهين أن العرب عرفـــوا النثر الفني في جاهليتهم، وأن هذا النثر لم يكن وليد الأساليب الفارسية وربيبها[٣].

(١) السابق، ص٣٧٤.
(٢) فاضل خلف، زكي مبارك، سابق، ص٤٤.
(٣) انظر، زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، سابق، جـ١، ص٣٥-٣٦.

ويعترف زكي مبارك بأن رسالته تلك جديدة لم يسبقه أحد إلى تأكيد ما فيها، فهو يقول موجهًا حديثه لطه حسين الذي تجاهل هذا الإنجاز، وقال عن كتاب زكي مبارك: " كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكُتَّاب"[1]، مُذكِّرًا إياه بقول (ماسينيون) يوم أدى زكي مبارك امتحان الدكتوراه: " إننى حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا، وحين أقرأ أبحاث زكي مبارك أشعر بأني أواجه شخصية جديدة"[2]. ولم يترك زكي مبارك في الرحلة الباريسية جرأته وصراحته مع أساتذته من المستشرقين، وعلى رأسهم (مرسيه)، وهو يعترف بذلك بقوله: "وما كدت أصل إلى باريس حتى هممت بمهاجمته، فنصحني المسيو (ماسينيون) وأفهمني أنه رجل صعب المراس، وأن المستشرقين جميعًا يجلُّونه أعظم الإجلال، ولكن كتب الله أن لا أنتصح برأي المسيو (ماسينيون) فابتدأت رسالتي، التي قدمتها للسوربون بفصلين في نَقْض آرائه من الأساس، فغضب وثار وصمم على حذف الفصلين؛ بحجه أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسي في البحث، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذي تنهض عليه نظريتي في نشأة النثر الفني. وكأنما عزَّ على

(١) الرسالة – ٢٦ مارس ١٩٣٤ – النثر الفني.

(٢) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكي مبارك، إعداد وتقديم كريمة زكي مبارك، الزهراء للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٦.

الرجـل أن أهاجمه في عقر داره، فمضى يعاديني عداء خفيًّا، كانت له آثارٌ بشـعة، لا أتذكرها إلا انتفضت رعبًا مـن عجز الرجال عن ضبط النفـس، وقدرتهم على تقويض دعائـم الإنصاف وقد قابلت خصومته بلَدَد أقسـى وأعنـف، ورأيت الحرص على آرائـي أفضل من الحرص علـى رضاه، فأبقيـت الفصلين اللذين أغضبـاه[1]. وأرى أن هذا النص الاعترافي الذي يتسـم بالجرأة والصراحـة، أضافه زكي مبارك بعد أن نـال الدرجة العلمية، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، اعتراف زكي مبارك نفسه لوجود اختلاف بين الأصل الفرنسي والنسخة العربية لرسالته (النثر الفني في القرن الرابع)، فهو يقول: بين الأصل الفرنسي، وبين هذا الكتاب – يقصد الطبعة العربية – اختلاف قليل؛ ففي النسـخة الفرنسـية أشـياء تكتب لأهل الغرب، ولا يحتاج إليها أهل الشرق، وفي هذه النسـخة العربية تفاصيل لا يحتاج إليها أهل الغرب، وينفع أهل الشـرق، ويمكن القول بأن في النسـخة العربية حرية لم تكن في النسـخة الفرنسية؛ لأن الأصل الفرنسي كتب لأداء امتحان الدكتوراه في جامعة باريس، تحت إشـراف أستاذين فيهما صرامة وشدة، وهما المسيو (مرسـية) والمسـيو (ديمومبين) فالأصل الفرنسي وُجِّه وجهة العلم الصرف، أما هذا الكتاب فوضع لغرض التعليم والتثقيف"[2].

(١) زكي مبارك، النثر الفني، سابق، جـ١، ص١٠-١١.
(٢) السابق، جـ١، ص١٣-١٤.

ثالثاً: حياته العملية:

الأمــر الجدير بالاحترام والتقدير هــو أن (زكي مبارك) حين عاد إلى مصر من رحلته الباريسية، عاد وهو أشد إيمانًا بالتراث الإسلامي وبالثقافــة العربية، وهو يعترف بذلك صراحة في أول مقال كتبه بعد عودته، بيَّن فيه مذهبــه الأدبي، وقد جاء فيه: »إن صاحب هذا القلم سيقصر جهوده على ناحيتين اثنتين: الأولى الآداب العربية، والثانية حياة مصر الحاضرة في شــؤنها الأدبية والاجتماعية. فَمَنْ كان يريد أن يرى غضبتي للحق، وعبادتي للجمال فليقرأ ما أكتب... ومن كان يريد أن يرى صورة مكرَّرة لمن سبق من الكتاب والشعراء، فليعلم أن الخمول أحبُّ إليَّ من أن أكون صدًى لأحد من القدماء أو المُحْدَثين «[1].

عمــل زكي مبارك بعد عودته من باريــس بالجامعة المصرية بعقدٍ يتجــدد، وكان طه حســين وقتها مُبعَداً عن الجامعــة . والمعروف أن طه حســين كانت بينه وبين زكي مبارك عدة معارك أدبية؛ بسب نقد زكي مبارك لآراء طه حسين في كتابه النثر الفني، إضافة إلى غِيرة طه حســين؛ لأن الدكتوراه التي حصل عليها مــن باريس كانت دكتوراه جامعية، أمــا دكتوراه زكي مبارك فكانت دكتوراه دَوْلة، وفرق كبير بــين الاثنتين في فرنســا[2]. ولما عــاد طه حســين إلى الجامعة، رفض

(١) البلاغ – ٢٤ يوليو ١٩٣١ – قلمي بين الصدأ والصقال.

(٢) رءوف سلامة موسى، زكي مبارك، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ومكتبة المعارف

تجديد عقد زكي مبـارك. وقد عرض الدكتور منصور فهمى على زكي مبـارك أن يُصفِّي ما بينهما، ولكـن زكي مبارك رفض، واعترف أنه لو عُرض عليه الأمر قبل ذلك لقبله، فهو يقول: "أنا على أتم استعداد لتصفية ما بيني وبين الدكتور طه حسـين، ولكنِّي لا أفعل ذلك في هذه الأيام، ولو أنك اقترحت ذلك منذ شـهرين لقبلت. أما الآن فلا تسمح نفسـيي بمصافحة الدكتور طه وأنا أعلـم أن لذلك دافعًا من الغرض[1]. فهـذا النص الاعترافي يكشـف ما فُطرتْ عليه نفـس زكي مبارك من الإباء والاعتداد بالنفس.

وقـد انبرى عدد مـن الأدباء للدفـاع عن زكي مبـارك، مُعترفين بعبقريتة ونبوغه، منهم المازني[2]، وسـلامة موسى وغيرهما[3]. أما زكي مبارك، فقد تلقَّى الحدث بشـجاعة وثبات، نعلم ذلك من النص الاعترافي الآتي: «وأقسم ما فكَّرت في المنافع المادية حين توليت التدريس بالجامعة المصرية، وإنما كان همِّي أن أغرس الشوق إلى الدرس في نفوس تلاميذي، وقد ألقيت في صدورهم جذوة لن تخمد، ولن ينالها سكون، ولإن قضتْ الأغـراض بأن أبعد عن الجامعة، فإن زملائي سـيذكرون

ببيروت، ٢٠٠٢م، ص٤٦.

(١) محمـد محمود رضـوان، عبقري من سـنتريس، الهيئة المصريـة العامة للكتاب، ٢٠٠٤م، ص١٧٤.

(٢) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، سابق، ص٢٩.

(٣) البلاغ – ٨ أغسطس ١٩٣٥ – زكي مبارك وإخراجه من الجامعة.

دائمًا أن تركت في أنفسهم آثارًا أطيب من المسك، وقد حزنوا لفراقى حزنًا أليمًا، أما الأحقاد التي تتلظى في صدر طه حسين، فستقضي عليه شر قضاء، وستنكل به تنكيلًا، ولن تدوم له أيام الطغيان، ولن يبقى له فلان وفلان، والكرسي الذي يجلس عليه في الجامعة هو أقل ما أنتظره من الجزاء في المستقبل القريب .... إن أعظم منصب في الجامعة المصرية لا يُنيلني من المجد مثل ما أنالني كتابُ النثر الفني، وستفنَى أحجار الجامعة وتبيد ذكرياتها، ثم يبقَى ذلك الكتاب – يقصد النثر الفني– على الزمان»[1]. هذا النص الاعترافي، يكشف فيه زكي مبارك عن دوره وتأثيره في طلابه، وزملائه في الجامعة، كما أن فيه إشادة بمؤلفاته وفي مقدمتها (النثر الفني) وذلك على طريقته المحببة إلى نفسه في المبالغة والتهويل من شأنه وشأن مؤلفاته.

وعلى الرغم من أن طه حسين كان السبب الرئيس في إبعاد زكي مبارك عن الجامعة، فإن زكي مبارك كان يحترمه ويقدره، ويقف بجواره في كل أزمة يقع فيها، ويعترف بتفرده وقدراته، ذلك قوله يوم وفاة والدة طه حسين مُعَزِّيًا بأسلوبه الخاص: "والدكتور يتيم كالدرة اليتيمة، وهي اللؤلؤة التي تحتكرها صدفه... إن اليتم معناه الحقيقى هو فقد الأب والأم، والمعنى المجازي هو التفرد، وقد تفرد

(١) زكي مبارك، البدائع، سابق، جـ٢، ص٢١٠.

الدكتور طه بطرائف في التفكير وفي التعبير، فهو يتيم"[1].

في تلك الفترة، تقدم زكي مبارك إلى الجامعة للحصول على الدكتوراه الثالثة عن "التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق " عام١٩٣٧، ظهر خلالها الفرق بين زكي مبارك صاحب (الأخلاق عند الغزالى)، وزكي مبارك صاحب (التصوف الأخلاقي)، ففي رسالته تلك نقض لدعائم رسالته الأولى، واعتراف -أيضًا- أن الأخلاق عند الغزالي لم تكن إلا دعوة صريحة للتشكيك في أصول الأخلاق الموروثة عند القدماء قال زكي مبارك: " وهذا كتاب- يقصد الأخلاق عند الغزالى- ألفته في أوقات كنت فيها ثائر القلب والعقل على فهم القدماء للأخلاق، وهي ثورة لم أنجُ من شرِّها إلى اليوم، وقد أسايرها وتسايرنى إلى آخر أيامي، وكيف يهدأ من يروعه أن يرى في رجال الدين من يعرفون خريطة الحياة الأخروية، ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية والواقع أن كتاب (الأخلاق عند الغزالى) لم يكن إلا دعوة صريحة إلى التشكيك في أصول الأخلاق الموروثة عند القدماء" ثم يوضح ما يريد بقوله: "وقد رجعت عن بعض الآراء في هذا الكتاب، حيث ألفت كتاب (التصوف الإسلامي) وبين الكتابين أعوام تنقل فيها عقلي من أفق إلى أفق"[2] فهذا النص الاعترافي يكشف فيه زكي مبارك عن تغير شخصيته بفعل

(١) البلاغ – ٨ أغسطس ١٩٥٠ – طه حسين اليتيم.

(٢) زكي مبارك، التصوف الإسلامي، دار الكتب، د.ت، المقدمة.

الزمان والمكان.

وهـذا مـا أكده محمـد جاد المـولى الـذي امتحن زكـي مبارك في الرسـالتين بقولـه: "رأيت طالب الدكتوراه في سـنة١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه سـنة ١٩٣٧م، كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان بلا تهيُّبٍ ولا تلطُّفٍ، ولا أقول بلا أدب. أما الطالب الجديد، فكان آيةً من آيات الأدب والذوق، وكان مثالًا من أمثلة التواضع والاستحياء، يسمع السؤال بهدوء؛ فيجيب عنه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس، فماذا صنعت الثلاثة عشر عامًا بالدكتور زكي مبارك؟ لقد تغيَّر تغيُّرًا تامًّا، وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه أشد الانقطاع، وكذلك يصنع العلم بأبنائه الأوفياء، فهو يجعلهم متواضعين مهذَّبين، لا يعرفون العنف ولا الغطرسة ولا الكبرياء»[(١)]. وبعد أن حصل زكي مبارك على الدكتوراه الثالثة، أطلق عليه محمد الأسمر لقب "الدكاترة زكي مبارك"[(٢)].

هـذا النبـوغ العلمي، جعـل الناس حوله قسـميْن: قسـم يحبه ويقدره، مثل سـلامة موسـى والمازني وغيرهما، وقسم غاضب عليه، يترصده ويحاربه في رزقه؛ بسـبب صراحته وجرأته، كطه حسـين، والنقراشي، والسنهوري"[(٣)].

(١) محمد محمود رضوان، عبقري من سنتريس، سابق، ص٥٠.
(٢) البلاغ – ٣١ يناير ١٩٥٠ – مَنْ أطلق كلمة الدكاترة على الدكاترة ؟
(٣) انظر، زكي مبارك بقلم زكي مبارك، سابق، ص١٧٠، ١٨٠.

ويرجع عداء الفريق الثاني له، إلى صراحته، وصدقه في الحق من ناحية،وإلى عدم وجود حزب يدافع عنه من ناحية أخرى، وهو ما اعترف به زكي مبارك بقوله: " والذين يحاربونني لم يطمعوا في محاربتي، إلا لظنهم أنني رجل أعزل لا أنحاز إلى حزب من الأحزاب، وليس لي في الحكومة عمٌّ أو خال"[1]. لقد عاش زكي مبارك فترة طويلة بعيدًا عن دنيا الوظيفة، ليس له ما يساعده على مغالبة مشاكل الحياة غير ما تدفعه له الصحف والمجلات من مكافأة.

كان زكي مبارك يرجو أن يتحسن وضعه في وزارة المعارف بعد أن صار الدكاترة، ولكن لم يتحقق شيء من ذلك، فعاش حياته يحسُّ بالغُبْن والجحود، فيصرِّخ معترفًا بهذه الحقيقة بقوله: «وحالي في مصر حال عجيب، فقد عشت دهري مظلومًا، وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انْتُزِعتْ تلك الدكتوراه- يقصد الدكتوراه الثالثة- من أنياب الأسود"[2].

وفي خِضِمِّ هذا الجو من الجحود والتربُّص الذي أحاط بزكي مبارك، جاء تقدير (العراق واختيارها له؛ للتدريس بدار المعلمين العليا ببغداد في عام ١٩٣٧، والطريف في الأمر أن (زكي مبارك) قبل هذه الدعوة لا بوصفه محاضرًا، وإنما بوصفه طبيبًا. وهل يشك القارئ

(١) البلاغ – ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ – طه حسين بين البغى والعقوق.
(٢) زكي مبارك، ليلى المريضة في العراق، دار الهلال، ٢٠٠٢، ص٢٣١.

لحظة في أن (زكـــي مبارك) طبيبًا، إذا قرأ هذه العبارات الاعترافيه: "ولا أســتطيع أن أصــف كيف كانت الأيــام التي ســبقت رحيلي إلى العراق، فقد قضيتها في درس الطب النفســاني والروحاني»[1]. ويؤكد على هذه الوظيفة بقوله معترفًا بممارســته الطب لا الأدب: "تذكرت العيــادة الجميلة التي أقمتها في شــارع فؤاد بعــد أن خُرِّبت عيادتي بشــارع المدابغ بسبب الســيدة (ن)، وكانت عيادتي بشارع فؤاد تبشر بمســتقبل رائع، فقد كانت مُجهَّزة على أحداث طراز. ثم يعترف بأن الأدب هو الذي ضيَّعة كطبيب فيقول: ألا فليعلم الجمهور الذي يخلفنا بعد مئات الســنين أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء كانوا يعيشــون في مصــر، وهم: محجوب ثابت، وأحمد زكي أبو شــادي، وزكي مبارك ... أما زكي مبارك فقد أضاعه الأدب جملة واحدة، وإني لا أخشى ألّا يســتمع إليه أحد إن وصف لمريض شــربة زيت؛ ومع أنه ظفر بألقاب كلية الطب وكلية الآداب، فقد ضاع في الكليتين، فهو عند كلية الآداب رجل طبيب، وعند كلية الطب رجل أديب"[2].

ويتعجــب زكي مبــارك معترفًا بما صار إليه حاله بعد الســفر إلى العــراق فيقول: "أليس من العجيــب أن أهاجر إلى بغداد وأنا طبيب،

(١) السابق، ص١٧.

(٢) السابق، ص٤٦-٤٧.

فأرجع وأنا أديب؟"[1].

وهـذا كلام لطيف ترتاح إليه النفس، ولو قال به غير زكي مبارك لكان كلامًا يدعو إلى السـخرية والاسـتهزاء، ولكنه نال الاستحسان والقبول؛ لأنـه صدر من أديب امتلـك روح الفكاهة والمرح، وصاحب طريقة فريدة في الأدب الحديث.

وقد قابل أبناء العراق انتداب زكي مبارك للتدريس في بغداد بالرضا والسـرور، ولذا لم يكد يصل بغداد، حتى أقام لـه الأدباء العراقيون حفل تكريم، يكرمون الأدب العربي في شخصيته الفذة[2].

ولقـد كان لهـذا التكريم أثرٌ عظيم في نفسـية زكـي مبارك، وهو الـذي لم يجد سـوى الجحود والغـبن في وطنه ظهر ذلـك في حصاده الأدب الوفـير، الذي تمثَّل في إصـداره أربعة كتب هي: ليلى المريضة في العـراق، وعبقرية الشـريف الرَّضِيّ، وملامـح المجتمع العراقي، ووَحْي بغداد. بالإضافة إلى محصول شـعري، تمثل في عدد من القصائد الشعرية التي كتبها زكي مبارك من وحي بغداد، يعترف فيها بفضل العراق عليه:[3]

(١) السابق، ص٨.

(٢) انظر، عبدالرازق الهلالي، زكي مبارك في العراق، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٦٩م، ص٥٩-٧١.

(٣) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، سابق، ص٢٧٥.

سيسأل قـــوم عن زكي مبارك ... وجسمي مدفون بصحراء صمّاء
فإن سألوا عنّي ففي مصرَ مرْقدِى ... وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائي

وإلى جانــب اعتراف زكي مبارك بأثر العــراق عليه أدبيًا، هناك التأثير النفســي الذي كان يفتقده في مصر، فقد هــدأت أعصابه بعيدًا عن معاركه الأدبية في القاهرة، يعترف بذلك التأثير النفســي بقوله: "لقد راعني أن أجد في دار المعلمين العالية شبانًا نجباء، يستمعون إلى دروسي، وكأنهم صورة من صور العطف والذكاء، وأعظم نعمة في الدنيا أن يقف موقف المعلم لشباب مهذبين أذكياء، وأنا واثق أن لن يعاديني أحد من هــؤلاء التلاميذ، ومطمئن إلى أني أعيش بينهم عيش الغريب بعد أن طالت شكواى في القاهرة وسنتريس"[1].

هذا النص الاعترافي، يكشــف أن العام الــذي قضاه زكي مبارك في العراق، كان بمثابة الراحة النفسية، التي كان يبحث عنها بعيدًا عن صراعاتــه الأدبية في مصر، والجحــود الذي يحيطه فيها، مما كان له أكبر الأثــر في أن يفضي إلى قلمه ؛ فيبدع أربعة كتب قيِّمة، بالإضافة إلى عدد كبير من القصائد الشعرية التي حواها ديوانه (ألحان الخلود).

فلــم يكــن بمســتغربٍ – إذن – أن يعترف بأنه ابــن بغداد فكان

(١) عبدالرازق الهلالي، زكي مبارك في العراق، سابق، ص٧٤.

يقول: " إنه ابن بغداد، قبل أن يكون ابنًا للقاهرة أو باريس"[1].

وعندما عاد زكي مبارك من رحلته العملية في بغداد عام ١٩٣٨، ازداد إحساسه بالغربة الروحية والوحشة؛ بسبب الجحود الذي مازال ينتظره في مصر، فشرع يناجي الصحراء والليل بقوله: "أيتها الصحراء، إن حالك مثل حالي، موات في موات ... وقد تمرح فوق ثراك الميت هوام وحشرات، وفوق ثرى قلبي الميت تمرح هوام وحشرات، هي السخرية من الناس، واليأس من صلاح القلوب، وجمال الوجود... أيها الليل، قد اقترب صباحك، فمتى يقترب صباحي ؟ لك خلاص من ظلماتك، فأين الخلاص من ظلماتي؟ ستمضى لشأنك وتتركنى يا ليل... أيها الليل، لقد عرفت قسوتك في بلاد كثيرة من الشرق والغرب، وما كنت أعرف أنك أقسى ما تكون في داري وفي وطني»[2].

هذا الحديث أو المناجاة الاعترافية، يدل على مدى ما عاناه (زكي مبارك) من الغربة حتى في وطنه بعد عودته من العراق، فقد بقي كما هو واستأنف عمله مفتشًا بوزارة المعارف، يستطيع الكاتب عن الشخصيات أن يتخيل لها أعمالًا غير التي تعملها في الواقع، ولكن من الصعب أن نتخيل لزكي مبارك مهنة غير مهنة الأدب، فقد كانت صلته به نذر وقسمة، فهو يعترف بأنه كان يميل- في صغره -إلى

(١) رءوف سلامة موسى، زكي مبارك، سابق، ص٩٥.

(٢) الرسالة – ١٤ أغسطس ١٩٣٨ – هذه داري وهذا وطني ولكن أين أحبائي ؟!

الاطلاع على الأدب العربي خاصة الشعر، الذي فُتِن به، فهو يعترف بأنــه «كان مفتونًا منذ الطفولة بقراءة الشــعر، وأنه كان يشــترى كل كتاب يلمح فيه بيتًا واحدًا»[1].

وكان يعلــم أن الأدب صناعــة لا تُجــدي علــى صاحبها شــيئًا في معيشته، فهو يعترف بأنه "لو كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب؛ لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه بلا أســف ســيموت فقيرًا؛ لأنه أنفق نشــاطه في خدمة الأدب العربي. والأدب العربــي خليق بأن يكون له شــهداء، وأنا في طليعة أولئك الشــهداء"[2]. لقد خُيِّل إلى زكي مبارك أنه قادر على أن يعطي الأدب حقه، وأن يعطي مطالب المعيشة حقها، فلــم يلبث غير قليل حتى يتبين له أنه لــلأدب وحده، والدلائل على صحة هذه الفكرة كثيرة، منها خروجه من وزارة المعارف ثلاث مرات بــلا مكافأة، ولا معــاش "[3]. ومنها اعتذاره عن عــدم مواصلة العمل في العــراق؛ لرغبتــه في طبع كتاب (التصوف الإســلامي) في القاهرة؛ خدمــةً للأدب"[4]. لقد احتمل (زكي مبــارك) مصاعب كثيرة من أجل الوصــول إلى الهــدف الــذي كان يطمح إليه، وهو أن يكــون في طليعة الكتــاب العرب في العصر الحديث –وهو ما تحقق– إلى جانب أنه كان

(١) زكي مبارك مقدمة ديوان زكي مبارك.
(٢) الرسالة – ١٨ أبريل ١٩٣٨ – عبقرية الشريف الرَّضِيّ.
(٣) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص١٧٠.
(٤) زكي مبارك، ليلى المريضة في العراق، سابق، ص٢٣٥، ٣٦٢.

يهدف إلى بلوغ منصب العميد لإحدى الكليات المصرية، وهو ما أخفق في تحقيقه؛ لأن المسئولين ضنوا عليه بما يريد، وحالوا بينه وبين ما يطمح إليه، فعلَّلَ(طه حسين) فصْله من الجامعة ؛بأنه كان يجامل بعض الطلاب – كفؤاد سراج الدين– مقابل بعض الهدايا"[1].

الأمر المثير للإعجاب أن زكي مبارك حين وُجِّه إليه هذا الاتهام اعترف به بقوله: "نعم ...جاملتهم؛ لأنهم كانوا ينفقون جهدهم، ومالهم، وحياتهم، وأوقاتهم في الخدمات الوطنية ضد الاستعمار"[2].

إن هذا النص الاعترافي يدل على مدى وطنية زكي مبارك، فلم يقف شعوره الوطني حتى في هذا الموقف، الذي قد يُعرِّض سمعته العلمية والعملية للتجريح.

هذا الموقف يتفق مع موقف طلعت حرب حينما أعطى فريقًا من عملاء بنك مصر سُلفًا كبيرة بلا ضمانات، ولّما سألوه عن السبب قال: " لقد كنت مستعدًّا أن أقدم لهم هذه السلفيات بلا أى ضمان؛ فأولئك هم الذين أنفقوا ثرواتهم الضخمة في الحركة الوطنية" ويعقب الأستاذ حافظ محمود على هذين الموقفين بقوله: "ولإنْ كان هذا الموقف من طلعت حرب، وزكي مبارك لم يعجب المتزمتين، الذين كانوا يريدون

(١) محمد الدسوقي، طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، دار المعارف، سلسلة اقرأ، د.ت، ص٤٨–٤٩.

(٢) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكي مبارك، سابق، ص١٧.

شيئا آخر، فإنه موقف يُذكر لكليهما في لوحة الشرف الوطني»[1].

تلك كانت حالة (زكي مبارك) مع الوظيفة، التي ضاق بها وضاقت بـه، فاعتـزل التدريس والتفتيـش ولجـأ إلى الأدب والصحافه .وقد اعترف (زكي مبارك) – بطريقته الخاصة– أن هذا ماكان يسـعى إليه ويخطط له فيقول: "أين مَنْ يصدق أن الدكتور زكي مبارك موظف بعقد في دولـة فيها ألف صديق مـن الكبراء، تعجبوا يا نـاس ماطاب لكم التعجب، أمّا أنا فلن أتعجب؛ لأن هذا ماأردته لنفسي»[2].

وقد كان زكي مبارك شعلة نشاط في عملة الصحفي، فلم يترك مجلة، أو صحيفة مصرية إلا كتب لهـا، وكانت جريدة (البلاغ) الأوفر حظًّا من مقالاته، وخاصة مقاله الشـهير (الحديث ذو شـجون) الذي كتبه زكي مبارك من ملاحظاته اليومية الكثيرة.

أما المجلّات فكانت (الرسـالة) الأعلـى نصيبًا من مقالاته، حيث تجلى قلمه على صفحاتها إلى ألطف حدود التجلي.

ومـع كثرة مقالات (زكـي مبارك) الصحفيـة، وتنوعها، فإنه لمُ يسـخِّر قلمه لخدمة أى حـزب من الأحزاب فعـاش بروحه اللطيف وقلمـه النظيـف، وهو يعترف بذلـك مفتخراً بنفسـه: "إن الذخيرة

(١) حافـظ محمـود، زكي مبارك وطنيـاً، الذكرى المئوية لميلاد الدكتـور زكي مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩١م، ص١٨١.

(٢) البلاغ – ١٧ سبتمبر ١٩٤٧ – إلى معالي وزير المعارف.

الباقيــة في حياتي هي أننى أعيش بروحــى وقلمي...إنه روح لطيف وقلــم نظيف...فما اســتطاعت حكومــة مصرية، أو غــير مصرية أن تستأجر قلمي[1]. وإن دلَّ هذا النص الاعترافي على شيء فإنما يدل على أن الأدب استأثر بزكي مبارك واستولى عليه، مما جعله يفلت من قيود الوظائف والحزبية، ليظل قلمه أبياً صريحاً، يبغض النفاق والمداورة.

رابعاً: وطنيته:

لم يكــن زكي مبارك بمعزل عما يدور في وطنه من أحداث وثورات ضد الاحتلال، فشــارك في ثــورة ١٩١٩، واكتــوى بنارها، وذاق آلام التشــرد والاعتقال. واعترف بأن ما يقوم بــه هو خدمة وطنية وليس من أجل حزب الوفد الذي حاول رجاله اجتذابه إليهم بالمال ؛فاعتذر غاضبــاً «أنــا أخدم وطني بعقيــدة صحيحة ولا أقبــل درهماً في خدمة وطني"[2].

وقد كان لنشــاط زكي مبارك، وإثارته للجماهير بخطبه دورٌ كبيرٌ في اسمــرار الثورة ضد الإنجليز الذين ســعوا إلى اعتقاله، واقتدوه إلى معتقل سيدى بشر بالإسكندرية.

وقــد تركت أيام الاعتقال في نفســية (زكي مبــارك) آثاراً مريرة، اعــترف بها بقوله: "إن أيام الاعتقال أورثتنــى أحزاناً كثيرة، وهي

(١) وردت هذه العبارة على غلاف كتاب (زكي مبارك بقلم زكي مبارك).
(٢) محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، سابق، ص٢٩.

أحزان لا تزال تعتصر قلبى، ولكننى استفدت من أيام الاعتقال، فقد عرفت بها معنى الاغتراب في الحياة، وهو معنى جميل[1].

خامساً: ملامح خِلْقية وسمات نفسية:

يقصد بهذه الصفات ما يشكل تضاريس شخصية زكي مبارك، بحيث تظهر ملامحها في أدبه عامة، والاعتراف منه بصفة خاصة.

وقد كفانا زكي مبارك مشقة وصفه الجسدى والنفسي؛ لأن شخصيته كانت واضحة لمن يريد أن يعرف أبعادها وملامحها الأساسية، ولا يستطيع أن يحدثنا عنها أصدق من (زكي مبارك) نفسه فما أكثر ما تكلم عن نفسه معترفًا في كتبه، ومقالاته، وأشعاره وما أكثرها!

أ- الملامح الخِلْقية:

كان زكي مبارك متوسط القامة، قوى البنية، غزير الشعر، متقوس الأنف، جهير الصوت وسيم الوجه، أرزق العينين رغم أنه كان يكرر أنه أخضر العينين؛ نكاية في المحتل الإنجليزى المشهور بزرقة العينين[2]. غليظ الشفتين، ورث عن أبيه الجد والتقوى والصلابة، وورث عن أمه – ذات الأصول اللبنانية – الوداعة وطيبة القلب،

(١) محمد محمود رضوان، عبقري من سنتريس، سابق، ص٣٩.

(٢) زكي مبارك، ديوان أحلام الحب، جمع وتحقيق: كريمة زكي مبارك، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ص٨٨ الحاشية.

فاجتمعت فيه ملامح الفلاح المصري والجمال اللبناني.

وقد اعترف زكي مبارك بأثر الوراثة على ملامحه الجسمية بقوله: "وأسارع فأقرر أن جدي لأمي، وهو الحاج إسماعيل فارس من أبناء لبنان، وهذا ظاهر في وجهي وعيوني[1]. ويعترف زكي مبارك بأثر التكوين الجسماني على شخصيته وأدبه، بما يتضمن اعترافًا ضمنياً برضائه عنها فيرى نفسه "أذكى الناس وأقوى الناس، ولم يخطر بباله أن الله أنشأ إنسانًا أصح منه عقلاً أو أقوى جسمًا، ولولا نشأته على الوقار لكان من كبار المصارعين[2]. وهذا يفسر لنا السر وراء تسميته بالملاكم الأدبي[3] وبفتوة المنوفية[4].

أما بالنسبة لملامحة العقلية، فقد كان متوقد الزكاء، صافي الذهن، قوي الذاكرة، فهو يعترف بذلك بقوله: " حقيقة لم ألتفت إليها من قبل هي عودة ذاكرتي، فقد قضيت ثلاثة أيام بلياليها بدون نوم، فأعدت على نفسي أكثر أجزاء القرآن الكريم، وثلاثة أرباع ألفية ابن مالك، وثلاثة آخماس أشعار لافونتين، ولامرتين، وهوجو، ودى

(١) البلاغ – ٢٧ مايو ١٩٤٧ – موشحات ابن نباتة المصري.

(٢) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، سابق، ص٥٤.

(٣) احمد حسن الزياتي، الرسالة – ٢٩ يونيو ١٩٤٢ – الصفاء بين الأدباء.

(٤) أمين الخولي، الرسالة – ١٩ أكتوبر ١٩٣٩ – أسماء وأحاديث في منزل الدكتور طه حسين.

موسيه، وحفظت ثلاثين ألف بيت من الشعر العربي [1] ولكن ذاكرته ضعيفة فيما يتصل بالأرقام والأعلام، وهي قوية فيما يتصل بالحوادث والمعاني يعترف بذلك بقولة: " فأنا قد أتمثل حادثة بظروفها وأحوالها في غاية من التدقيق كأني شهدتها بالأمس ولكني أنسى اليوم الذي وقعت فيه، وقد أنسى العام والعهد[2].

ب - الملامح النفسية:

الكلام عن ملامح زكي مبارك النفسية سيكون مقصورًا على بعضها، التي لها علاقة بأدب الاعتراف عنده، وليس من المفيد أن نسرد قائمة بهذه الملامح، وإنما المهم هو استشفاف ما وراءها من شخصية زكي مبارك.

(١) الحزن والاغتراب:

كان زكي مبارك في أغلب حالاته قلقًا يحس الاغتراب. وقد اعترف بذلك في أكثر من موضع كما في قوله: «.. فأنا في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب[3].

وكان أقرب إلى الحزن منه إلى الفرح والابتهاج، كثير الشكوى

(١) محمد محمود رضوان، عبقري من سنتريس، سابق، ص٦٠.
(٢) الرسالة – ٤ يناير ١٩٤٣ – خواطر ليلة الميلاد.
(٣) زكي مبارك، ذكريات باريس، سابق، ص٢٥٩.

والتبرم؛ لشدة إحساسه بالظلم، يعترف بذلك في مقدمة كتابه: "الأسمار والأحاديث" بقوله موجهاً حديثة إلى القارئ: "إليك أيها القارئ أنفض أحزاني وأشجاني، ولو شئت لدللتك على فيالق من المؤلفين في المشرق والمغرب شكوا دهرهم كما شكوت، وتوجعوا من زمانهم كما توجعت، وعانوا من غدر الأصدقاء والزملاء بعض الذي أعاني، فأنا لم أبتكر شكوى الزمان، وإن كنت أشقى المكتوين بغدر الزمان[1]. هذا الحزن يسود معظم أشعاره، وكتاباته الوجدانية، عبارة عن قصائد طويله من الحزن والتوجع، فهو يقول عن ديوانه (ألحان الخلود): «إن الحزن يتموج ملتهبًا فوق صفحات هذا الديوان[2]. لهذا الحزن أصول ترجع إلى أيام الطفولة عندما توفيت تلك الروح التي خفق لها قلبه أول خفقة، والتي قال فيها أول قصيدة، وسكب عليها أول دمعة، فتراه يهديها ديوانه الأول، بهذا الاعتراف المبثوث بعبارات الحزن: " إلى تلك الفتاة التي خفق لها القلب أول خفقة، والتي قلت فيها أول قصيدة، وسكبت عليها أول دمعة، إلى تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت سماء سنتريس، إلى بقاياك في التراب يا فاتحة الأماني، وخاتمة الآمال، إليك يا كل ما كنت أملك في مطلع

(١) زكي مبارك، الأسماء والأحاديث، مطبوع مع كتاب "حب بن أبي ربيعة وشعره"، سابق، المقدمة.

(٢) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، سابق، المقدمة.

الصبا وفجر الشباب، أقدم هذا الديوان[1].

تلك الفتاة التي كان زكي مبارك يرى وجهها في وجوه أخواتها من بنات حواء وإن تعددت الأسماء، ولعل هذا يفسر لنا سر إفراط (زكي مبارك) في التعبير عن عواطفه تجاه المرأة، وظهر في أشعاره ومؤلفاته العاطفية أنه صاحب صولات وجولات غرامية بداية من حبه الأول في سنتريس، وحتى ليلى المريضة في العراق.

وقد أخذت الأيام تزيد من حزن زكي مبارك، وأصبح قلبه يتلقى سهام الحياة وأحزانها بلا هوادة، مما كان له عظيم الأثر في رهافة حسه ورقة مشاعره، وهذا يفسر لنا طغيان الصبغة الوجدانية في آثاره الأدبية، والتي ترجع إلى شاعريته الأصيلة، وطبيعته العاطفية، بالإضافة إلى إصابته بالثكل مرات عدة، فهو يقول معترفًا: "وأنا أيضًا شبْت قبل الأوان بأعوام طوال، وكان ذلك؛ لأن الله امتحننى بالشكل في مطلع شبابي، حملت على كتفي ستة من أبنائى وبناتي إلى القبر ومنهم طفل دفنته في حديقة البيت؛ لأنه مات في ساعة الميلاد"[2].

وعندما بلغ زكي مبارك ما بلغ من مكانة علمية وأدبية، رأى المجتمع غير المجتمع الذي رسم له صورة فاضلة في مخيلته. كان شاعرًا مرهف الحس، فظن الناسَ أجمعين في مثل إحساسه، ولكنه ودَّ القسوة والغلظة فتحول إلى إعصار يقول زكي مبارك: " لقد ابتدأت

(١) زكي مبارك، ديوان زكي مبارك، الإهداء.

(٢) الرسالة – ٢١ يونيو ١٩٤١ – الحديث ذو شجون.

حياتي الأدبية بأناشـيد الحب والجمال، ولو خلاني الناس وشأني؛ لعشت بلبلًا وديعًا لا يسمعون منه غير أنغام الحنين، ولكن لؤم اللئام حوَّلـني إلى إعصار عاصـف، يمحق ما يصادف مـن اليابس والأخضر والطير والحيوان "[1].

كان زكي مبارك يظن أن الخلق الذي شب عليه في الريف، هو الخلق السـائد في المجتمع ولكن الشواهد كذبته، وأخلفت ظنه بالناس، ولذا حمل على المجتمع وأخلاقه حملات ضارية.

وزاد من أحزانه تلك المتناقضات التي اصطدم بها فأثَّرت في نفسه، واصطدم بسببها مع كثير من معاصرية متَّهِمًا إياهم بالجحود والعقوق؛ لأنهم وقفوا أمام طموحة فضاق بهذا اللون من الحياة وأخذ في الشكوى والأنين من حياته التي لم ينتفع منها بشـيء: » لم أنتفع بشيء فحتى هذه السـنة – يقصد عـام ١٩٥٠– وأنا أحـرر في الجرائد والمجلات وأملأ الدنيا ضجيجًا وأنشيء المدارس أدبية وفلسفية، ثم أنظم القصائد الجياد، ثم أراني مُتخلِّفا في حياتي الرسمية"[2].

كل هـذه الأسـباب كونت أحزانـاً متراكمة في نفـس زكي مبارك فجعلته يرسل تلك الشكوى المؤثرة المبثوثة في كثير من كتاباته، وصار

(١) زكـي مبارك ونقد الشـعر، إعداد وتقديـم: كريمة زكي مبـارك، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط٨، ١٩٨٧م، ص١٩.

(٢) السابق، ص١١-١٢.

للحزن عنده فلسفة تكمن في عبارة واحدة(الحزن قوة) وقد اعترف زكي مبارك بهذه الفلسفة بقوله: "والحزن ليس مصدر ضعف كما يتوهم الناس، وإنما هو مصدر قوة؛ لأنه دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد من الناس ومن الأشياء، والحزن مقصور على الحيوانات الرقيقة وأرقى أنواع الحيوان هو الإنسان"[1].

وفي الواقع أن أحزان زكي مبارك تفيض من أعماق نفسه وتصدر عن آلام المجتمع وآماله فهو حزن خلاَّق، ألهمه أروع أشعاره ومقالاته وجعله من كُتَّاب الطليعة.

٢ - الصراحة والصدق:

ومن ملامح شخصية زكي مبارك النفسية أنه رجل ابتلاه الله بالصراحة والصدق فلم يكن يعرف المداراة والمجاملة على حساب ما يرى أنه الصواب، فهو لا يدين بمذهب النفعية في شيء فعادى في سبيل ذلك رجالاً لهم نفوذ وسلطان، وعن ذلك المنحى يقول زكي مبارك معترفًا: «... وعاديت من أجل الحق رجالاً يضرون وينفعون، ويقدمون ويؤخرون فكان اعتصامي بحبل الحق هو أقوى ما تدرَّعْت به؛ لاتِّقاء مكايد الناس ومكاره الزمان"[2].

(١) فاضل خلف، زكي مبارك، سابق، ص١٤٥.
(٢) زكي مبارك، الأسماء والأحاديث (المقدمة).

ويعــترف (زكي مبارك) بأن قول الحق لم يــدع له صديقًا، ولكنه غير نادم " وكنت أعرف ما أنا صائر إليه؛ فبقول الحق سأفقد أصدقائي جميعــاً، ولكني غير نادم علــى مصاحبة الصدق الــذي كدَّر حياتي، فالنفع الذي يصل عن طريق الكذب، نفع سخيف.إن الصدق هو شعاري في حياتي، وأنا أوصى به قرائي"[1].

وقــد قادته صراحتــه وصدقة إلى الاصطدام بمــن حوله، كما قادته صراحته – أيضاً – إلى الحدة في النقد، فكان أقرب تصور له قول أحمد أمين عنه إنه «رجل يمســك بيســراه كتابًا قيماً فيــه علم غزير وأدب وفير، وبيده اليمنى عصا أشهرها، ثم هو يطلع الناس على مافي كتابه مــن طرف فَمن هــمَّ أن يفتح فاه بنقد، أو مخالفة قرعة بما في يمناه... فلا ينقده نقد عالم لعالم، ولكن نقد مصارع لعالم"[2]. لهذا خاصم زكي مبارك، وخسر الكثيرين من أصدقائه ومن ذوى الشأن.

٣ - الاضطراب والخلل:

والملاحظ على نفســية زكي مبارك أنها كانت على استعداد للخلل؛ نتيجة لتعدد جوانب نفســيته، فهو حائر في تحديد حقيقة نفســه، وهو مــا اعترف به بقوله: «أنا متهم بالعقــل والجنون، فمن وصفنى بالعقل، فهو متلطف، ومن وصفنى بالجنون، فهو مســرف؛ لأني في

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، سابق، ص١١٤.
(٢) أحمد أمين، الرسالة – ٢ أبريل ١٩٣٤ – كتاب النثر الفني في القرن الرابع.

حقيقة أمرى إنسان يعيش في ثورة العواطف فوق ما يعيش بقوة العقل، وهي حالة تجعل أمرى وسطًا بين العقل والجنون"[1].

وقد اعترف زكي مبارك بهذا الاضطراب في نفسيته، التي جمعت التوازن والخلل فيقول: ".. وإنما الواقع أني درست نفسي فرأيتها صالحة للارتياض بآداب الناس، ومازلت أعجب كيف استطعت أن أعيش في دنيا لا صديق فيها ولا حبيب، ولعل السر في صلاحيتى للعيش أني أصادف أقواماً رماهم الدهر بما رماني، فائتلفنا كما يأتلف الوحوش، ومع هذا لا أنكر أني معرَّض للتخلق بأخلاق مختلفة، في بعضها قوة، وفي بعضها ضعف، غير أني مع ذلك أقرر أن هذا الاختلاف هو أيضاً صورة من نفسي»[2]. وقد يكون هذا الخلل النفسي ناتجًا عن إحساسه المستمر بالاغتراب في حياته.

١ - الاعتراف بالخطأ والرجوع عن آرائه:

كانت أعظم سمة نفسية تحلى بها زكي مبارك، هي اعترافه بما في مؤلفاته من أخطاء وهفوات، هذه السمة جعلته يسبق النقاد، ومن ذلك اعترافه بوجود أخطاء عدة في كتابه (حب ابن أبي ربيعة، وشعره) كالاستطراد، وتقديم صورة نفسية عن الشاعر لا يقتضيها موضوع البحث، ويختم زكي مبارك كلمته الاعترافية عن الكتاب

(١) الرسالة – ٢ يناير ١٩٣٩ – أغرب ما رأيت في حياتي.
(٢) الهلال – أول ديسمبر ١٩٣٨ – أنا نفسي.

بقوله: «ولا أستطيع أن أعد ما في كتاب: حب ابن أبي ربيعة وشعره من الهفوات"[1].

وعن سفره الثمين (النثر الفني في القرن الرابع) يعترف زكي مبارك بأخطائة في الكتاب، ذكر منها غلبه النزعه الوجدانية، وقلة الشواهد، واختلاف منهج العرض والتأليف، بالإضافة إلى غلبة الاستطراد[2].

وبالنسبة لدواوينه الشعرية فهو يعترف بوجود بعض الضعف في أبياته الشعرية فيقول عن ديوانه (ألحان الخلود): "قد يرى القارئ بيتًا ضعيفاً في قصيدة قوية، فيسأل عن السر في الإبقاء على هذا البيت الضعيف. وجوابي: إن ذلك البيت قد يكمل الصورة"[3].

وكما اعتذر زكي مبارك للقارئ عما في كتبه وأشعاره من أخطاء وضعف، فكذلك رجع في بعض آرائه النقدية، إذ تبين له خطأ أحكامه، فهو يعترف بأنه أخطأ في مهاجمته للغزالى؛ بسبب موقفة السلبى أثناء الحرب الدائرة في بلاد الإسلام، ويرجع عن تلك الآراء بقوله: "ثم مرَّت أعوم راضنى فيها الدهر بعد الجموح، فعرفت أن الغزالى لم يكن من الجبناء وإنما كان من الحكماء"[4].

(١) مقدمة كتاب: حب ابن أبي ربيعة وشعره.
(٢) النثر الفني، ج١، ص٥-٦.
(٣) خاتمة ديوان (ألحان الخلود).
(٤) الرسالة – ٢٩ يوليه ١٩٤٠ – إليك أعتذر أيها الغزالي.

هــذه الحادثة تبين طبيعة زكي مبارك الصريحة مع نفســه، التي دخــل معها معركة تختلف عــن كل معاركه الأدبيــة الأخرى، وأى معركة أشــد على النفس من كبح جماحهــا وإجبارها على الاعتراف بخطئها وهي في قمة زهوها بما حققته من إنجازات علمية!.

وكان يعتقد أن (إسماعيل صبرى) هو أول شــاعر سنَّ مذاهب القول في وصــف آثار الفراعــين [1]، ولكنه رجع عن رأيــه عندما اطلع على قصيدة (كبار الحوادث في وادى النيل) لشوقي، فعلم أن (شوقي) سبق (إسماعيل صبرى) إلى التغنى بتلك الآثار[2].

وكذلك الحال بالنسبة (للبوصيري) فبعد أن لامه على أنه جرى في تشبيه مجرى المحاكاة والتقليد في مطلع القصيدة، بذكر(كاظمة وإضم) من الأماكن غير المصرية، رأى أن "ذكر البوصيرى لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها ينافي مصريته، وكان له أن يتشــوق إلى أحبابه في بلبيــس أو فاقوس.... ومن الناس من يعتذر عــن صاحب البردة بأنه تشــوق إلى تلك الأماكن لصلتها بمدينة الرســول، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشــرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة وتقليداً، ولو كان صادق اللوعة، لشبَّب بغادة مصرية، وحن إلى مغنى من مغاني النيل"[3].

(١) زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٢٦٤.
(٢) زكي مبارك، أحمد شوقي، ١٩٨٨م، ص٣٨-٣٩.
(٣) الموازنة بين الشعراء، ص١٦٨-١٦٩.

ثــم رجــع زكي مبارك عــن حكمه الســابق واعــترف بخطأ رأيه بقوله: "والنسيب في البردة يتصل بالتشوق إلى المعالم العربية، وكنت لُمْتُ البوصــيري على هذا في كتاب (الموازنة بين الشــعراء) ثم تبيَّنت أنــه اختار تلــك المواطن ؛لصلتها بمولد الرســول،وخاصة إذا لاحظنا أن النســيب لم يقصد لذاته حتى يتحدث الشــاعر عن هواه في بلبيس وفاقوس، وإنما هو نســيب وقع في موقع التمهيد لقصيدة دينية، ولولا حرص الشــاعر على متابعة القدماء في افتتاح القصائد بالنسيب لما كان للتغزل في مثل هذه القصيدة مكان"[1].

فهــذه النصوص الاعترافية يتضح منهــا أن "المفكر، أو المبدع، أو الناقد، يتخلى عن آرائه وأفكاره التي يؤمن بها تجاه القضايا الفكرية، أو الإبداعيــة، أو النقديــة في فترة ما من حياتــه؛ لأن آراءه وأفكاره أصبحت لاتتلاءم ومفاهيم وقيم واقعه الجديد، وربما قد كشف الواقع الجديد خطأها وزيفها"[2].

٢ - الثناء والاعتداد بالنفس:

أما قضية القضايا المتعلقة بسماته النفسية، فهي إحساسه، الأكبر بالــذات، وإضافة هالة من التعظيم على (الأنا) فكان زكي مبارك كثير

(١) زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، مطابع الشعب، ١٩٧١م، ص٢٠٣.

(٢) عبدالناصــر هــلال، لويس عوض الرديكالي الذي باح بســره للنار، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٢م، ص٢١٩.

الاعتداد بنفسه و بملكاته، تيّاهًا إلى الفخر، وقد وصل في ذلك إلى درجة عالية من الإحساس بالذات – لا نقول بالنرجسية – هذا الاستعلاء يتفشَّى في معظم ماكتبه زكي مبارك حتى أصبح عيبًا أخذه عليه معاصروه. ومعنى ذلك أن أظْهَرَ خصائص أدب (زكي مبارك)هو قوة الذاتية التي عرَّفها بقولة: "هي أن تكون أنت أنت فلا تكون صورة من غيرك"[1].

والأمثلة على اعتداد زكي مبارك بنفسه كثيرةٌ وإن كان يلطِّف استعلاءه روح خفيف ودعابة مستملحة مع صراحة وبداوة ريفية(٢).

والأمر المثير للدهشة والتأمل أن زكي مبارك لم يرَ في ثنائه على نفسه أى عيب، وإنما هو بعض حقوقه التي ضن بها معاصروه عليه، بل يجعل الحديث عن نفسه من خصائص أدبه فهو يقول: " تصوير هموم النفس، وما يحيط بها من مخاوف وآمال، هو أدب صحيح جعلتْه الكتب السماوية من شمائل الأنبياء .فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي ؟ وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسي ؟

وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم إلا أحاديث نفسية؟ والثناء على النفس يضايق الناس حين يكون ثناء بالحق، وإلا فمن

(١) زكي مبارك، بقلم زكي مبارك، ص١٣٠.

(٢) عباس خضر – الرسالة – ١١ فبراير ١٩٥٢ – الأدب والفن في أسبوع.

الذي اســتطاع أن يكذبنى حين أثنيت على نفسي...إن الشعور بالنفس هو أســاس الشــعور بالوجود .. فأين من يملك من الصدق بعض الذي أملك؟[1].

ولا يتحــرج زكي مبارك في الاعتراف بإحساســه بذاته، والإعلان عن ذلك فهو يقول موجهاً حديثه إلى طه حســين: " أنا أعرف ما تكره منــى .أنت تكــره منى الكبرياء، وكيف أتواضع وقــد أعاننى الله على بناء نفسي ؟[2].

ويضيــق بنا المقــام إذا عددنا المواضع التي أثنــى فيها زكي مبارك على نفســه ســواء في كتبه الأدبية والنقدية، أم في دواوينه الشــعرية . ففي مجال تنظيره الأدبي، نراه شــديد الزَّهو بأنه "أول من كشــف النقاب عن نشأة النثر الفني في اللغة العربية...وهل يمكن الشك في أن مؤلــف هذا الكتاب يقصد النثر الفني، هو أول من رجَّع الصور الفنية في نثــر كُتّــاب الصنعة والزخرف إلى أصول عربيــة صميمة؟ ... وهل يتردد أريب في الاعتراف بأن الفصول التي كتبتها عن نشأه المقامات، وعــن الأخبــار والأقاصيص، فصول مبتكرة كُتبَــتْ لأول مرة في اللغة العربية"[3]

ويعــترف في مقدمــة كتابه (المدائح النبوية) بأنه "أوَّلُ من يرســم

(١) الحديث ذو شجون، سابق، ص٤٤٧.

(٢) الرسالة – ١٢ فبراير ١٩٤٠ – إلى الدكتور طه حسين.

(٣) النثر الفني في القرن الرابع، ج١، ص٤.

خصائــص المدائح النبوية في الأدب العربي، وهو موضوع كان يجب أن تعيَّن رسومُه وحدودُه منذ أزمان"[1].

ولا يتــورع زكي مبارك أن يضفي هالة من التهويل والمبالغة تأكيدًا لإحساســه بموهبته، وافتقاده تأكيد الغير لهــا، وتعويضًا عن قصور النقــاد في التنبيه إليها والإشــادة بها فيقول عــن كتابه النثر الفني، معترفًا بفضله على الأدباء " ولن يستطيع أى مؤلف آخر – مهما اعتزَّ بقوته وتعامي عن جهود من ســبقوه – أن ينسى أني رفعت من طريقه أُلوفًا من العقبات والأشواك"[2].

ويكرر زكي مبارك اعترافه بذاته في أغلب مؤلفاته فيقول في خاتمة كتابه (العشــاق الثلاثة): "ولن يســتطيع قلم أن يقول في هؤلاء العشاق كلاما يفوق ما جاد به قلمي، ولو صار الورق أرخص من التراب لما جاز عندي أن يضاف حرف إلى هذا الكتاب . تحدث عن هؤلاء العشاق فلان وفلان وفلان، وستذهب أحاديثهم أدراج الرياح، ولايبقى غير كتابي؛ لأني قبسته من نار قلبى ونور وجداني»[3].

كذلــك كان حاله حين ســخر مــن ناقدية وتوَّج نفســه على كُتّاب عصــره؛ لمّا أعياه العثور على من يمنحه لقبــاً يرضاه، وهو حين خلع

(١) المدائح النبوية، ص٨.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع، ج١، ص٣-٤.

(٣) زكي مبارك، العشــاق الثلاثة، دار المعارف، سلســلة اقرأ، د.ت، ص١٥٧، ويقصد بالعشاق الثلاثة: جميل بن معمر، كثير بن عبدالرحمن، والعباس بن الأحنف.

على نفسه خلع المبالغة والاعتداد بالنفس لدرجة الغرور.

يقول زكي مبارك مُقرِّظًا نفسه ومعترفًا بموهبته ناقدًا: » الشريف الرَّضِيّ في كتابي أشعر من المتبنى في أى كتاب، ولن يكون المتنبى أشعر من الشريف، إلا يوم أؤلف عنه كتابًا مثل هذا الكتاب"[1]. فعبقرية الشعراء لا تقوم إلا على يديه، وويل للشعراء ممن لم يتناولهم قلمه، وفي ذلك اعتراف شديد بالنفس، ولذا لم يكن بمستغرب أن يُنَصِّب زكي مبارك نفسه على نقاد عصره وأن يجعل نقده هو النقد الحق والصواب، يعترف بذلك بقوله: "في يقيني أنني سأحول النقد الأدبي في مصر تحولاً جدياً، وسأعلِّم القرَّاء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين قبل أن يغرموا بتلمس النزوات الصغيرة التي يلقى بها الكتاب هنا وهناك، وهم يتجادلون ويتحاورون؟»[2].

وإذا ما تأملنا نتاجه الشعرى نجد أن هذه النزعة واضحة جلية في دواوينه، فيعترف بأنه مَلِك الشعراء، وأشعر من البحترى فهو يقول: " قال الدكتور محمد صبرى إن ديباجتى الشعرية ديباجة بحترية وهي كلمة يريد بها الثناء، ولكننى عند نفسي أشعر من البحترى، وأشعر من جميع الشعراء ؛ لأننى ملك الشعراء"[3].

---

(١) زكي مبارك، عبقرية الشريف الرضي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ج١، ص٥.

(٢) زكي مبارك ونقد الشعر، سابق، ص٣٧.

(٣) ديوان: ألحان الخلود، ص١٨.

وهــو يخرج على الناس بالديوان الشــعرى يؤلفــه، ويحذرهم من نقده، يعترف بذلــك صراحة دون مداراة فيقول عــن ديوانه: ألحان الخلود: "لن يستطيع ناقد متحذلق أن يكتب حرفًا في نقد هذا الديوان ؛ فمــا عرفت اللغة العربية في تاريخهــا القديم، وتاريخها الحديث قلمًا أمضى من قلمي، أو بياناً أبلغ من بياني»[1].

وما من أحد يمكن أن يعترف لنفســه بكل هذا التفوق، ولكن زكي مبارك اعــترف بذلك صراحة بقوله: "وأنا أعتقد بلا زهو، ولا كبرياء أنــي وصلــت باللغة العربية إلى مــا كانت تطمح إليه مــن البيان . أنا أعتقد – بلا اســتطالة ولا تزيُّد– أني خلقت عذوبة الأســلوب في اللغة العربيــة، وقد صار البيان عندي طبيعة أصيلة لا يعتريها تكلف، ولا افتعــال .. إن الذي يقــرأ مؤلفاتي، ومقالتي يشــعر بأنه يرى الحياة وجهًا لوجه"[2].

فما تفسير هذه النزعة النفسية ؟ لقد تم التوصل إلى أن هذه النزعة الذاتيــة لم تكن نابعة في أدب زكي مبــارك عن أنانية أو غرور، وإنما هــي نابعة عن ثقة واعتقاد بأن أبســط حقوقه أن يتحدث عن نفســه، مــادام مُطاردًا من الجميع، وأن يقدم أعماله بنفســه مــادام النقاد قد نكصوا، وتقاعسوا عن ذلك.

(١) السابق، ص١٤.
(٢) الأسمار والأحاديث (المقدمة).

ولعل زكي مبـارك- صاحب الرؤية المسـتقبلية- كان يتوجس ألّا ينـال الثنـاء المقدَّر له بعد موتـه مادام لم ينله في حياتـه؛ فبادر إلى تتويجٍ نفسـه بنفسـه والإشـادة بمواهبها قبل أن يفعـل غيره ذلك، معترفًا بذلك بقوله: "أخشـى ألّا أظفر بكلمة رثاء يوم يُشَيّعُنى الناس إلى قبري، فذاكرة بني آدم ضعيفة جدًّا، لا تذكر من يشـقى لإسعادها ويفنى لخلودها، والناس لا يذكرون إلّا مَنْ يؤذيهم، أما الذي يخدمهم ويتعـب من أجلهم فـلا يذكره أحدٌ منهم بالخـير إلّا وفي كلامه نبرةٌ تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف"[1].

وقد كفانا (زكي مبارك) مؤنة البحث عن الأسباب التي كانت وراء تلك النزعة، بقولة مخاطبًا المازني، الذي عدَّ ذلك عيبًا من عيوب زكي مبارك: "هل حال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه النزعة النفسية ؟هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذي أقع فيه كارهًا غير طائع ؟لو أنـك فعلت لعرفت أني لا أتكبر إلا متحديًا، والتحدى نزعة طبيعية تطـوف بالنفس حـين تفكر في دفع الجحود والعقوق .لقد يئسـت من إنصاف الناس فكيف لا أنصف نفسي ؟ وأنا بعد هذا أسأل مَنْ يؤذيهم ثنائي على نفسـي، أسـألهم: متى يجاهـدون في الأدب كما أجاهد ؟ ومتى يعانون في سـبيل الأدب ما أعأني ؟ أيـن الزميل الذي يقول إنه

(١) زكـي مبارك، حافظ إبراهيم، إعداد وتقديم، كريمـة زكي مبارك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م، ص١٤.

أحرص مني على الوفاء بحقوق القلم البليغ ؟

وأين الشخص الذي يملك الزعم بأنه ينفعني ؟ ومن هو المخلوق الذي يتوهم أن له ديْنًا في عنقي ؟ ومن هو الروح الطاهر الذي يطمح في السيطرة على شيطانية روحي ؟...كانت الغاية عندي أن أقيم على أن لوطني وجودية تحمية من الأباطيل، وكانت حياتي شاهدًا على صحة ما ابتغيت، فما استطاعت قوة أن تهدمنى، ولا جاز في وهم مخلوق أن يراني من أتباعه ولو كان أعظم العظماء .. لن أرتاب لحظة في أني أول كاتب، وأول مؤلف، وأول شاعرٍ في هذا الزمان ...هو ذلك لأني أسهر الليل في مسامرة قلمي، ولأني أؤمن بأن الاعتماد على الماضي هو ثروة السفهاء من الوارثين "[1].

هذا النص الاعترافي يكشف فيه زكي مبارك عن السبب وراء تفشي هذه النزعة النفسية في أدبه، فهو لم يمدح نفسه طائعًا بل كارهًا؛ نتيجة الظلم والعقوق الذي لاقاه من المجتمع الذي لم يقدر مواهبه الكثيرة، فجعل من حديثه عن نفسه مهربًا ومتنفسًا لما يعانيه من غدر مجتمعه وزمانه.

وكثير ما كان زكي مبارك يردد مثل هذا القول، ويعترف به صراحة دون مواربة؛ لأنه شاعر، والشعراء يضفون على أنفسهم هالة

(١) الحديث ذو شجون، ص٤٤٨-٤٥١.

من هالات العظمة والشهرة، فهو يقول: "يُقال إننى أثنى على نفسي. هذا صحيح ؛ فالدكتور زكي مبارك الذي أكرم جميع الشعراء لم يُثنِ عليه أحد من الشعراء"[1].

وفي شعر (زكي مبارك) تعليل لهذه النزعة، وأن مَرَدَّها إلى شيء واحد: هو ما كان يعانيه من ظلم،وإغماط لحقه في أن يعتلي أعلى المناصب، وأن يتلقى الإشادة عن مؤلفاته وعلمه[2].

وكان يجيب على السبب وراء تلك النزعة، بترديد قول ابن الرومي:[3]

وعزيز عليَّ مدحي لنفسي .... غير أني جشمته للدلالة
هو عيب يكاد يسقط فيه .... كلُّ حرٍّ يريد يظهر حاله

وبذلك يمكن القول، إن زكي مبارك قد اعترف بثنائه على نفسه، وإنه لم يثنِ عليها إلا صادقًا عندما لم يجد مَنْ ينصفه، وذلك على نحو يتراوح بين الشعر والنثر، وبأسلوب فني رائع ترتاح له النفس، وليس أدل على ذلك من قول دريني خشبة: ".. هذا إلى ما تفيض به مؤلفاته من روح الاعتداد بالنفس والزهو، الذي أُعجب به من زكي

(١) زكي مبارك، ديوان: أطياف الخيال، دار مصر للطباعة، د.ت، ص٥٧.
(٢) ديوان: ألحان الخلود، ص٣٧٤، وديوان: قصائد لها تاريخ، ص٩١.
(٣) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص١٦٩.

مبارك ولا أُعيبه عليه ... ولله ما أظرف ما يجيب به حين يسأل عن هذا فيقول: زمان لا يريد أن ينصفني، فلماذا لا أنتصف منه لنفسي؟"[1]

وفي الحقيقة أن ما قيل عن ذاتية زكي مبارك واعتداده بنفسه، إنما هي أمور ترجع إلى شعوره بالظلم، وفي الوقت نفسه، يؤكد هذا الشعور، الذي يصل إلى حدّ العقدة، أن لصاحبه رغبة كامنة في الدفاع عن نفسه إزاء كل ما يواجهه من عوامل الإحباط، وإحساسه الدائم بالاضطهاد، وهذا ما كشف عنه نثره الكثير، كما كشفت عنه أشعاره، فهو يقول:

تغربت في الدنيا فلا مصر داري ... ولا أنا أوفي الحياة إلى ركن

فتى عبقرى الروح لا الناس أهله ... وليس له عند الكريهة من خدن[2]

إن شعور زكي مبارك بالغبن دفعه دفعًا إلى الثناء على نفسه، وحصد الألقاب، فهو يقول:

« نظمت قصائد كثيرة في تصوير الوجد المشبوب بصورة قضت بأن تخلع عليَّ (مجلة الحوادث) لقب ملك الشعراء، ومن قبل خلعت عليَّ مجلة (الصباح) لقب أمير البيان"[3].

(١) محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، ص١٣٧.

(٢) ديوان: ألحان الخلود، ص١٨٥.

(٣) السابق، ص٦.

إن زكـــي مبـــارك كان – فيما أعتقـــد – على حق في هـــذا الاعتداد بالنفس، فقد قضى حياته الأدبية الطويلة عاكفاً على القلم والقرطاس، وألَّف مئات الألوف من الصفحات في عشـــرات من المجلدات والكتب، وظفر بثلاث درجات علمية، ولم يشفع له ذلك كله، فظُلِم في حياته.

هذا الظلم امتد ليشمل جوانب كثيرة من حياة زكي مبارك، بحيث يمكننـــا أن نقـــول: إن حياته كانت صورة واضحـــة للحظ العاثر، فقد عاش في وحدة كاملة لا رفيق له ولا أنيس، وهو ما يفســـر لنا اعتماده بشـــكل دائم على عملية الاســـتبطان النفسي ؛ ليهرب من واقعة المرير إلى مراجعة خرائط حياته التي "يتراءى في بعضها الشـــيخ زكي مبارك بعمامتـــه البيضـــاء، وفي بعضهـــا الآخر يتراءى زكـــي أفندي مبارك بطربوشـــه الأحمر، وفي جوانب أخرى يتراءى المسيو زكي مبارك في قبعته الرمادية، ومن العجيب أن هؤلاء الأشـــخاص، الذين يختلفون في ملابســـهم وأزيائهـــم يلتقون عنـــد نقطة واحدة، هـــي الحظ العاثر والفؤاد الخافق"[1].

خامسًا: شاعريته

كانت إحدى التُّهم الموجهة إلى زكي مبارك، هي إكثاره من أحاديث الحـــب والعواطـــف، حتى إن بعـــض النقاد أطلق عليـــه (زعيم الأدب

(١) ذكريات باريس، ص٢٦٨.

الوجدانـــي) [1] ويعترف زكي مبارك بأنه اتخذ من كتابة الوجدانيات مذهبًا له بقوله: "إن حديثي عن الحب صار مذهبًا أدبيًّا أشــرح به ما يتعــرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء، وأنا أريد خلْقَ جوٍّ من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان"[2].

ويرجع السبب في اتجاه زكي مبارك إلى الوجدانيات في المقام الأول إلى شاعريته.

وأشعار زكي مبارك- في الغالب- نظمها في فن واحد هو، فن الغزل والتشبيب، ولا غرابة في ذلك، فقد فطر على الحب، واستهواه الجمال، وهو في مطلع الشباب في مسقط رأسه (سنتريس).

وقد اعترف زكي مبارك باقتصار معظم أشــعاره على هذا اللون من الشــعر بقوله: "إن أشعارى تكاد تكون مقصورة على فن واحد، هو فن الغزل والتشبيب، ولعل هذا يرجع إلى طبيعة ذاتية، قضَتْ بأن أعيش للتغريد فوق أفنان الجمال"[3].

في المقابل، كان عزوفه عن شــعر المديح شمماً واستكباراً، ويعترف بالســبب في هذا العزوف بقوله: "ليس في أشعاري مديحٌ، فما أعرف

---

(١) عبــد الله خورشــيد، مجلــة الثقافة – ١٦ يناير ١٩٧٥ – زكــي مبارك زعيم الأدب الوجداني.

(٢) الرسالة – ١٩ فبراير ١٩٤٠ – تشريح عاطفة الحب.

(٣) ديوان: ألحان الخلود، ص٦.

رجلًا أعظم منِّي لأنظم فيه قصائد المديح"[1].

ولم يتفـرغ زكي مبارك لفن الشـعر وحده، ويعـترف أنه لو تفرَّغ لـه- على حد قولـه- "لفاقَ الأولين والآخرين ... وحسـبه أنه يحفظ ثلاثين ألفًا من الأشعار، كفيلة بأن تجري لسانه بالشعر المتصل"[2].

ولكن زكي مبارك، وهو الباحث الأديب لا يجد وقتًا للشـعر، بل ينظـر من قمة مواهبـه المتعددة، فيرى الشـعر أصغر من أن يحتوي موهبته.

ولا يتـورع (زكي مبـارك) عن الاعتراف بذلك، فهو يقدم نفسـه بنفسه مسـتغنيًا عمَّن يقدمه، فيقول وكأنه شخص آخر يقدم الشاعر وديوانه:

«ولا نندهش من هذا الأمل الجارف، فصاحبنا مفتون بنفسـه أشد الفتون، وكان نتيجة هذا الفتون أن رأى الشعر أصغر من أن تقف عنده همته الطاغية»[3].

ورأى أن هذه الأقوال لا تخرج عن دائرة التبرير؛ لتخلفه في ميدان الشـعر، وتفسـير جنوحه إلى ألوان أدبية أخرى يرى فيها نفسـه، بالإضافة إلى أنها تناقض ادِّعاءه- السابق - بأنه ملك الشعراء . وشعر زكي مبارك - كما أشـرنا - في معظمه شـعر عاطفي، صادر عن عاشق

(١) السابق، الصفحة نفسها.

(٢) ديوان زكي مبارك (المقدمة).

(٣) السابق، المقدمة.

قوي العاطفة، مشتعل الإحساس، صادق الوجدان، ثائر بطبيعته ألم يقل معترفًا: «إن الهدوء يزعجني، والجو الذي يثير الشاعرية في صدري هو الجو الحاد بالبرد أو القيظ، أما الجوالمعتدل فهو موسم خمود، ولعل هذه الطبيعة هي السبب في أن يتَّسم أدبي بوسم العنف والجموح"[1].

والطريف أن زكي مبارك يعترف بأن عنفه في جموحه الشعري، يرجع إلى مولده في شهر أغسطس "لأنه شهر طغيان النيل، ولأنه أعنف أيام القيظ، وكذلك يسميه أهل لبنان: آب اللهاب"[2].

سادسًا: أسلوبه

اتخذ زكي مبارك في كتاباته أسلوبًا مُميَّزًا، أحبه القراء، ورأو فيه فتحًا جديدًا وأسلوبًا مبتكرًا لم يألفوه من قبل، خاصة مقالاته (الحديث ذو شجون) التي كانت أشبه بفن الاعترافات أو اليوميات التي يكتبها كُتَّابُ الصحف المعاصرون.

ويعترف زكي مبارك بأن أسلوبه في الكتابة يصدر عن الفطرة الممزوجة بالثورة والاقتحام، فهو يقول: "وما أعرف بالضبط ماهي خصائص أسلوبي ؛لأني أصدر فيه عن السجيَّة والطبع"[3].

وقد أكَّدَ زكي مبارك هذه الخصيصة في كتاباته بقوله: " والحق أني

(١) ديوان: ألحان الخلود، ص٣٩.
(٢) السابق، ص١٥٥-١٥٦.
(٣) الأسمار والأحاديث (المقدمة).

لا أستطيع أن أكتب البحث الواحد مرتين؛ لأني أنتزع أدبي من ثورة العقل والقلب، وقد درست نفسي مرات كثيرة، فرأيت السهم الأول أنفد في جميع الأحيان، ورأيت معاودة الصقل والتهذيب ضربًا من الزخرف لا تسيغه طبيعة فطرتْ على الثورة والاقتحام"[1].

وقد اعترف زكي مبارك بأنه اكتسب هذا الأسلوب من مصادر عدة، أولهاحفظه للقرآن الكريم، فهو يقول: "سألني جماعة من أصدقائي عن طريقتي في الإنشاء، فقلتُ: أنا متأثرٌ بأسلوب زكي مبارك .. ولفائدة قرّائي أقول: أنا متأثر بأساليب كثيرة، أولها أسلوب القرآن المجيد"[2].

والثاني، حفظه لآلاف الأبيات من الشعر العربي – كما سبق وأشرنا – فقد جعله ذلك متمكِّنًا من صوغ التعبيرات الجميلة التي لا تخونه أثناء الكتابة. هذا الكم الهائل من الشعر، جعل لأسلوبه هذه الديباجة المشرقة التي لا غموض فيها ولا تكلف.

الثالث، إطلاعه على الأدب العربي القديم، فهو يعترف بأنه تأثر في مطلع حياته الأدبية بأسلوب بديع الزمان الهمذاني، والخوارزمي، وابن العميد وغيرهم، وكان يحفظ الكثير مما في (زهر الآداب) و(الأمالي) و(العقد الفريد)، فأعجب بكُتّاب الصنعة وتأثر بهم[3].

(١) المدائح النبوية، ص٨.
(٢) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص١١١.
(٣) البدائع، جـ١ ص١٢٧ وما بعدها.

الرابع، اغترافه من الآداب الغربية خاصة الفرنسية، فهو يعترف بتأثره في أسلوبه بالأدباء الفرنسيين مثل (فنلون) و(أناتول فرانس)، فهو يقول: "وأنا في الأدب الفرنسي متأثر بالكاتب (فنلون) مُبدع رواية تلماك ... ثم يجيء طفل يؤثر على أسلوبي، وهو (أناتول فرانس) إنه يتكلم كما يتكلم الأطفال، أعتقد أن هذا الرجل أعظم طفل أنجبته الأمة الفرنسية"[1].

وقد أدى هذا الامتزاج بين آداب اللغتين: العربية والفرنسية، أن أضحى زكي مبارك من المدرسة التي تُحكِّم العقل، وتفرض على الكاتب أن يدقق في اختيار ألفاظه التي يعتمد عليها.

ومن الواضح أن زكي مبارك قد تخلَّص من الأساليب المسجوعة أو الموزونة، وآثر أن يجعل كلامه مرسَلًا خاليًا من الصنعة.

هذه المصادر الأربع، تجمعت في أسلوب زكي مبارك، ومنحته هذا الابتكار، الذي لم يألفه القراء من قبل "وجعلته في مقدمة مَنْ نجحوا في خلق عذوبة الأسلوب في اللغة العربية، وأضاف إلى قاموس الوجدان أشكالًا رائعة من التعبيرات والمعاني الجديدة الرقيقة، فالرقة عنده طبيعة، وأسلوبه يتسم ببراعة التعبير ورشاقة البيان"[2].

وقد أقام زكي مبارك أسلوبه على أصلين هما السِّر في نجاحه:

---

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص١١٢.

(٢) محمد محمود رضوان، عبقري من سنتريس، سابق، ص١٥٢.

الصـدق والوضوح، وهو ما اعـترف به بقوله: "أمـا الصدق، فالناس جميعًا يشـهدون أثره فيما نشـرتُ من الرسـائل والقصائـد ... وأما الوضـوح، فهـو عندي ميزة أصيلـة، ولا أكاد أخط سـطرًا إلا بعد أن تتمثل الفكرة أمامي مثل بياض الصبح المشرق، وما عرضت لمعنى دقيق إلا كشفته، ورفعت عنه أستار الغموض، وتركته يصافح القارئ وكأنه من البديهيات.

ويضـاف إلى هاتـين الميزتين ميزة ثالثة؛ هـي الحيوية العنيفة في نقـد الآراء، فأنا في كلّ ما أكتب وما أقـول مُحارب لا يرى الحياة إلا في حومـة القتال، وليـس الأدب عندي مزاجًا أتَلهـي به في الأسمار والأحاديث، وإنما هو عراك في ميادين الفكر والعقل والخيال"[1].

ولعل هذه الخصائص المميزة لأسـلوب زكي مبارك، قد اسـتهوت القرّاء، ولعل هذا يفسر اتساع توزيع (البلاغ) في الأيام التي تنشر فيها مقال زكي مبارك (الحديث ذو شجون).

وبعـد ... فهذه هي أهم ملامح أدب الاعـتراف عند زكي مبارك، حاولنا أن نركز فيها على ما يخدم هدفنا، من تقديم صورة لشـخصية زكـي مبارك، تتضح معالمهـا في أدبه عامـة، واعترافاته خاصة، من خـلال مقالاته، وآرائه المبثوثة بين سـطور كتاباته، التي نفض فيها زكي مبارك نفسه، وصوَّر ملامح شخصيته أصدق تصوير، وحلَّل ونقد

(١) البدائع (المقدمة).

آثــاره الأدبية قبل الغير، معترفًا بما فيها من إيجابيات وســلبيات، وكان في ذلك أمينًا وأصيلًا غير متكلف، ليصدق فيه قول محمود تيمور: "إن وقفة واحدة مع زكي مبارك خليقة أن تظهرك على كلِّ شيء فيه، ما عَلَن منه وما اســتَتَر .. لقد كان ينفض نفســه نفضًا، ويكشف عنها كشفًا، فيركز لك خصائص شخصيته، ويقدمها في سهولة ويسر، دون أن يرهقك في تعّرف هذه الشخصية واستبطان أسرارها، والتفطن إلى ما فيها من طرافة أو شذوذ"[1]

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية: انظر، أحمد فريد،مواقف إيمانية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٩مص٢٦٣-٣٠٧.

١. البلاغ – ١٧ سبتمبر ١٩٤٧ – إلى معالي وزير المعارف.
٢. البلاغ – ٢٧ مايو ١٩٤٧ – موشحات ابن نباتة المصري.
٣. البلاغ – ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ – طه حسين بين البغى والعقوق.
٤. البلاغ – ٢٤ يوليو ١٩٣١ – قلمي بين الصدأ والصقال.
٥. البلاغ – ١٩ أغسطس ١٩٤٧ – الحديث ذو شجون.
٦. الثقافة، عبد الله خورشيد – ١٦ يناير ١٩٧٥ – زكي مبارك زعيم الأدب الوجداني.
٧. الرسالة – ٢ يناير ١٩٣٩ – أغرب ما رأيتُ في حياتي.
٨. الرسالة – ٢١ يونيو ١٩٤١ – الحديث ذو شجون.
٩. الرسالة – ١٨ أبريل ١٩٣٨ – عبقرية الشريف الرَّضِيّ.
١٠. الرسالة – ١٤ أغسطس ١٩٣٨ – هذه داري وهذا وطني ولكن أين أحبائي ؟!
١١. الرسالة، احمد حسن الزياتي– ٢٩ يونيو ١٩٤٢ – الصفاء بين الأدباء.
١٢. الرســالة – أمــين الخولي، ١٩ أكتوبر ١٩٣٩ – أسمــاء وأحاديث في منزل الدكتور طه حسين. الكاتب – بدر الدين، نوفمبر ١٩ الهلال، زكي مبارك، ليلى المريضة في العراق
١٣. الهلال، زكي مبارك، ذكريات باريس، ٢٠٠٢م

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب والمؤلفات العامة:

١ – ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبدالله الكبير وآخرين، دار المعارف، د.ت

٢ – أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.

٣ – أبو حاتم محمد بن حبان البستى، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م.

٤ – إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح – تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفورعطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م

٥ – حافظ محمود، زكي مبارك وطنياً، الذكرى المئوية لميلاد الدكتورزكي مبارك، الهيئة العامة لقصورالثقافة، ١٩٩١م.

٦ – رءوف سلامة موسى، زكي مبارك، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ومكتبة المعارف ببيروت، ٢٠٠٢م.

---

١٤. ٧٥م – عن الأدب والفن.

٧ – زكي مبارك بقلم زكي مبارك، إعداد وتقديم، كريمة زكي مبارك، مطبعة الفجالة الجديدة، ١٩٨٨م
٨ – زكي مبارك، أحمد شوقي، ١٩٨٨م بدون.
٩ – زكي مبارك، الأسماء والأحاديث، مطبوع مع كتاب «حب بن أبي ربيعة وشعره» بدون.
١٠ – زكي مبارك، البدائع، جـ٢. بدون.
١١ – زكـي مبـارك، الحديث ذو شـجون، الهيئة المصريـة العامة للكتاب، ١٩٨٠م
١٢ – زكي مبارك، العشاق الثلاثة، دار المعارف، سلسلة اقرأ، د.ت
١٣ – زكي مبارك، الموازنة بين الشـعراء، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٣
١٤ – زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، جـ١
١٥ – زكـي مبارك، حب ابن أبي ربيعة وشـعره، الشـركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ط١، ١٩٩٩م
١٦ – زكـي مبارك، ديوان أحلام الحب، جمع وتحقيق: كريمة زكي مبارك، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م
١٧ – زكي مبارك، ديوان: أطياف الخيال، دار مصر للطباعة، د.ت.
١٨ – زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، مكتبة مصر، ط٢، ١٩٨٨م
١٩ – زكي مبارك، ديوان: قصائد لها تاريخ، دار الشـعب، القاهرة، ١٩٨٧م

٢٠ – زكـــي مبارك، عبقرية الشـــريف الرضي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ج١، ١٩٨٨م

٢١ – عبدالـــرازق الهلالي، زكي مبارك في العراق، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٦٩م.

٢٢ – عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، ١٩٩٢م.

٢٣ – عبداللطيف عبدالحليم، المازني شاعرًا، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٩٤

٢٤ – عبدالناصر هلال، لويس عوض الرديكالي الذي باح بسره للنار، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠.

٢٥ – علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ

٢٦ – فخر الديـــن الزركلي، الأعلام، دار العلـــم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م

٢٧ – كريمـــة زكـــي مبارك، المعـــارك الأدبية بين طه حســـين وزكي مبارك، الزهراء للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥

٢٨ – كريمة زكي مبارك، زكي مبارك ونقد الشـــعر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط٨، ١٩٨٧.

٢٩ – كريمـــة زكـــي مبارك، زكي مبـــارك، حافظ إبراهيـــم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.

٣٠ – لويس عوض، أوراق العمر

٣١ – محمد الدسوقي، طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، دار المعارف، سلسلة اقرأ، د.ت
٣٢ – محمد محمود رضوان، عبقري من سنتريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م
٣٣ – محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، مكتبة مصر، ٢٠٠٠
٣٤ – الموازنة بين الشعراء.
٣٥ – نبيلة الشوربجي، وعفاف دانيال، علم النفس والشخصية، الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢م

ثانياً: الرسائل الجامعية:

– حاتم دياب أحمد، أدب الاعتراف في نثر عبدالرحمن شكري، دراسة أسس الإبداع الفني، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الألسن، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٨م

ثالثاً: الدوريات:

١ – البلاغ – ١٧ سبتمبر ١٩٤٧ – إلى معالي وزير المعارف.
٢ – البلاغ – ١٩ أغسطس ١٩٤٧ – الحديث ذو شجون.
٣ – البلاغ – ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ – طه حسين بين البغى والعقوق.
٤ – البلاغ – ٢٤ يوليو ١٩٣١ – قلمي بين الصدأ والصقال.
٥ – البلاغ – ٢٧ مايو ١٩٤٧ – موشحات ابن نباتة المصري.

٦ – البلاغ – ٨ أغسطس ١٩٥٠ – طه حسين اليتيم.

٧ – البلاغ، محمد محمود رضوان، عبقري من سـنتريس– ٣١ يناير ١٩٥٠

٨ – الثقافة، عبد الله خورشيد – ١٦ يناير ١٩٧٥ – زكي مبارك زعيم الأدب الوجداني.

٩ – دار الهلال، زكي مبارك، ليلى المريضة في العراق

١٠ – دارالهلال، زكي مبارك، ذكريات باريس، ٢٠٠٢م

١١ – الرسـالة – ١٤ أغسـطس ١٩٣٨ – هذه داري وهذا وطني ولكن أين أحبائي ؟!

١٢ – الرسالة – ١٨ أبريل ١٩٣٨ – عبقرية الشريف الرَّضِيّ.

١٣ – الرسالة – ١٩ فبراير ١٩٤٠

١٤ – الرسالة – ٢ يناير ١٩٣٩ – أغرب ما رأيتُ في حياتي.

١٥ – الرسالة – ٢١ يونيو ١٩٤١ – الحديث ذو شجون.

١٦ – الرسالة – ٢٦ مارس ١٩٣٤ – النثر الفني.

١٧ – الرسالة – ٢٩ يوليه ١٩٤٠ – إليك أعتذر أيها الغزالي.

١٨ – الرسالة – ٤ يناير ١٩٤٣ – خواطر ليلة الميلاد

١٩ – الرسالة – أمين الخولي، ١٩ أكتوبر ١٩٣٩، أسماء وأحاديث في منزل الدكتور طه حسين.

٢٠ – الرسـالة أحمد أمين – ٢ أبريـل ١٩٣٤ – كتاب النثر الفني في القرن الرابع.

٢١ – الرسالة، احمد حسن الزياتي– ٢٩ يونيو ١٩٤٢ – الصفاء بين الأدباء.
٢٢ – الكاتب – بدر الدين، نوفمبر ١٩٧٥م – عن الأدب والفن.
٢٣ – الهلال – أول ديسمبر ١٩٣٨ – أنا نفسي.
٢٤ – الهلال، تيمور– مايو ١٩٦٦ – زكي مبارك: فتى سنتريس.
٢٥ – الهلال، محمود تيمور – مايو ١٩٦٦ – زكي مبارك: فتى سنتريس.